رواية

سَيَكْبُرُ أنفُها

ماجد مقبل

الطبعة العاشرة

المكتبة

KALEMAT

سيكبرُ أنفضُها

رواية

مكتبة ببلوتيكا

ماجد مقبل

facebook.com/ktabpdf/
https://t.me/ktabpdf

٢٠١٥

إذا وجدتُم امرأةً تقبّلُ الجبالُ قدمَيها . .

أبلِغُوها سلامي ؛

إنها أمي . .!

إلى اللذين لا يعرفونَ ما يقولونهُ عن أنفسهم . .

أنا أنضمّ إليكم ؛ بكلامٍ كثيرٍ لا أعرف كيف أقوله . .!

الأطفالُ الذينَ أعرفهم ..

الذينَ ألعبُ معهم تحديداً ..

كانوا يركضونَ خلفَ الشمس ..

هكذا ؛ شمسٌ عاريةٌ تبللُ وجوههم ..

رغمَ أنها لا تـُمطر ..!

الأطفالُ كانوا يركضونَ خلفَ الشمس ..

وأنا كنتُ أبتسمُ وحيداً على مقعدِ الحديقة ..

عندما تكومتُ جانباً ..

وأخرجتُ الشمسَ من جيبي ..!

(2)
في طفولتي ..

كانَ الليلُ يزورُ أحدَ أصدقائي ..

وحينَ تعرفتُ عليه قاطعنا سوياً ..

ذاتَ مرةٍ أحسستُ بـ حركةٍ في [الليل] ..

وإذ بـ صديقي هذا يبكي قربَ الموقد ..

كانَ الميتمُ كبيراً كـ سفينة ..

ذا برجينِ هائلين ..

كـ قرني ماعزٍ يحملُ الكرةَ الأرضية ..!

وكانَ يبكي ..

حينها إقتربتُ وبدأتُ أتأسف ..

صرخَ في وجهي :

أنتَ سببُ إبتعادِ الليل ؛ أكرهكَ ..!

بعدَ [ليلتين] من تلكَ الحادثة ..

سمعتُ حركةً في [الليل] ..

وإذ بـ صديقي هذا يبكي قربَ الموقد ..

أخبرني أنني لستُ السببَ في ابتعادِ الليل ..

حينها نظرتُ لـ أعلى ..

كانَ الميتمُ صغيراً ..

ضيقاً كـ حضن صبيٍ صغير ..

كانَ الميتمُ لا يتسعُ لـ [ثلاثة] ..!

(3)

كنتُ أرى في نفسي رجلاً ..

- هذا على الأقلَ ما كنتُ أراه -

وفي مرةٍ كنتُ ألعبُ بـ طائرٍ ورقيَ ..

أتذكرُ جيداً عينيهِ التي رسمتها بـ قلمٍ أزرق ..

وذيلهُ الذي كانَ مقطوعاً ..

الذي أمسكَ بهِ ابنُ الحيَ لـ يأخذهُ مني ..

فـ شددتهُ بـ قوة ..

وحينما هربَ أحسستُ بـ أنني رجل ..

تلكَ اللحظة ..

والتي كنتُ فيها أقفزُ من رصيفٍ إلى رصيف ..

اصطدمتُ بـ امرأةٍ حاملْ ..

كنتُ أنظرُ إلى التكورَ المخيفِ أمامها ..

وسألتها :

ما هذا ..؟

انحنت قليلاً بـ ألم :

هذا رجلُ جديد ..

حينها امتعضتُ وتجمّدَ الطيرُ في يدي :

رجلُ غيري وغيرَ أبي ..؟

ابتسمت :

نعم ؛ رجلُ غيركَ وغيرَ أبيك ..!

مضيتُ لا ألوي على شيء ..

فـ هيَ تكبرني سناً وجسماً ..

وإلا لـ أبرحتـُها ضرباً ..!

- هذا على الأقلَ ما كنتُ أشعرُ به -

لكنني ..

وحينَ عدتُ إلى المنزل بعدَ عام ..

وبَخنني المشرفةُ كثيراً ..

وهدّدتْ بـ حبسي ..!

لكنني :

كنتُ أنظرُ بـ دهشةٍ إلى النكورَ المخيف أمامها ..

وأتساءل :

هذهِ الخبيثةُ حبستْ ذلكَ الرجلَ ..

لـ أنهُ خرجَ في نزهةٍ معَ تلكَ المرأة ..!

(4)

كانوا مقيَدينَ بـ إقامةٍ جبرية ..

لا أحدَ يراهم ..

لكنهم في منزلٍ فخم ..

لا يخرجونَ منه ..

وعندما يُنادى لـ صلاةِ العيد ..

أرى نوافذَ المنزل جميعها مشرعة ..

اللافتةُ على سورِ المنزل كانت تقول :

المرأةُ نصفها أخرس ..!

لم أكن أعلمُ ماذا تعني ..

ولم أكن أفكرُ بها كثيراً ..

بعدَ صلاةِ العيد ..

كنتُ أمسكُ بـ يدِ رجلٍ لا أعرفُ من هوَ ..

لكنهُ رجلٌ اختارَ اثنينٍ من الميتم ..

أنا وصديقي ..

بعدَ أن وقعَ على أوراق كثيرة ..

احتفظت ليَ المشرفةُ بـ نسخةٍ منها ؛ وقالت :

عندما تكبر سـ تأخذ هذه ..!

في قلبي كنتُ أتمنى أن أرى أنفها طويلاً ذاتَ يوم ..

أو أن تتمددَ أذنيها حتى تضطر لـ إخفائهما بـ قبعة ..!

كنتُ أسيرُ مع الرجلِ الأبيضِ هذا ..

والذي مرَ بنا قربَ المنزل ..

سألتُ بـ براءةٍ بعدَ مباشرةِ إزالتي لـ غلافِ الحلوى :

ماذا تعني هذهِ العبارة ..؟

ضحكَ كثيراً ، قائلاً :

أنتَ عفريت ..!

في اليوم التالي ..

لبستُ غطاءَ سريري الأبيض ..

وسرتُ في أرجاءِ الميتم ..

وحينَ رأتني المشرفة ُ تطايرَ الغضبُ من عينيها ..

وحملتني بـ يدٍ واحدةٍ وسارت ..

كنتُ أرى الأشياءَ في الميتم ِ وهيَ تبتعد ..

في حين ِ أنها تسيرُ إلى الأمام ..

ولم أعلم متى ينتهي هذا ..!

سارت مسافة ً طويلة ً إلى الأعلى ..

ثمَ أودعتني في حجرةٍ أعلى البرج ..

وأغلقت الباب ..

أولُ شيءٍ فعلتهُ هوَ إحضارُ صندوق ٍ :

ووضعتهُ أسفلَ النافذة ..

وحينَ نظرتُ تفاجأتُ وسقطت ..!

كانت النافذة ُ تطلَ على منزل المقيدين ..

وفهمتُ جيداً ما تعنيهِ عبارة ُ :

المرأة ُ نصفها أخرس ..!

كانوا مقيَدينَ بـ إقامةٍ جبرية ..

لا أحدَ يراهم ..

لكنهم في منزلٍ فخم ..

لا يخرجونَ منه ..

لكنَ أحدهم تمكَنَ منَ الفرار ..

خرجَ من ذلكَ المنزل ..

لكنَ خروجهُ كانَ :

خبرَ موتٍ في جريدة ..!

(5)
الحريقُ يُخرجُ دخانهُ من رأسي ..

والرجلُ القريبُ مني :

يسكبُ دلوَ ماءٍ كاملٍ فوقي ..

وحيثُ أني لا أنطفئ :

يُخرجُ سيجارةً ويُشعلها من عيني اليُمنى ..!

(6)
السيجارةُ التي أدخنها ..

تمتزجُ جيداً بـ طعمِ الطفولةِ في ذاكرتي ..

حينما كنتُ طفلاً في السادسة ..

كنتُ أراقبُ أولئكَ الذينَ يُشعلونَ سجائرهم ..

ثمَ ينفثونَ الدخانَ بـ أشكالَ مختلفة ..

أحدهم قوسَ شفتيهِ وأخرجَ دائرة ..

والآخر حركَ رأسهُ يميناً ويساراً ..

فـ خرجتْ امرأةٌ ترقص ..

وأنا ..

أرى امرأةً تغوي الليلَ في عينيَ ..

وأسحبُ رأسي إلى الخلفِ وأنفثُ الدخان ..

وأتمنى أن يخرجَ في شكلِ رمحٍ لـ أقتلها ..!

(7)
في الميتمِ لم نكُن نقرأ ..

فـ في السنةِ التي تعلمتُ فيها القراءة ..

كانَ صديقي قد غادرَ معَ الرجل الأبيض ..

وأنا ؛ نسيتُ القراءةَ تدريجياً ..

لـ سببين :

أحدهما أنني لم أقرأ منذ زمن ..

والآخرُ أنني دُهشتُ حينَ عرفتُ :

معنى [المرأةُ نصفها أخرس] ..!

(8)
بعد سنتين ونصف جاءَ صديقي إليَ ..

كانَ يحملُ حقيبةً مملوءةً بـ الطعام والحلوى ..

وكانَ حينَ يُخرجُ أحدها يهمسُ لي بـ اسمه ..

في مرةٍ وقبلَ أن يُخرجَ إحدى الحلوى ..

قالَ :

ما رأيكَ في طعمِ الفراولة ..

كنتُ في التاسعةِ حينها ..

وتخيلتُ وأنا أمسحُ بقايا الشوكولا شكلَ الفراولة ..

أو طعمها ..

بـ نظرةٍ تشبهُ النعسانَ دارتْ قصصٌ كثيرةٌ بـ رأسي ..

منها رجلٌ أعرجُ كانَ يحملُ تفاحةً قديمة ..

وكانَ يأكلُ بعضها ويقضمُ البعضَ الآخر ..

ثمَ يلفظهُ خارجاً ..

صِحتُ :

لا أحبَ طعمَ الفراولة ..

ضحكَ صديقي متسائلاً ..

فـ أخبرتهُ عن طعمها ..!

حينها أمسكَ بـ يدي ..

ووضعَ شيئاً أحمرَ بها ..

لـ الوهلةِ الأولى تذكرتُ بطلَ قصةٍ إسمهُ " زيس " ..

وتذكرتُ " عينَ " التنين الحمراء التي إقتلعها ..

ثمَ تذكرتُ أنَ الفراولةَ حلوى تؤكل ..

لكنها لا " ترى " شيئاً ..!

(9)

مرَت سنتانِ منذ ذلكَ الوقت ..

ولم أرَ صديقي ..!

لكنني في تلكَ الأثناء كنتُ أحاولُ جاهداً التخلصَ منَ الميتم ..

المشرفةُ بانت عجوزاً ..

وكانت تحملُ طفلها معها ..

وأنا أتذكرُ كلما كبرتُ ذلكَ الرجلُ المحبوس ..

كيفَ أنها حبستهُ طويلاً :

حتى أصبحَ صغيراً ..!

علمت المشرفة ُ حكايتي مع َ الرجل ..

وصارت تهددني إن لم أنم ..

بـ أنها سوف َ تحبسني ..

أحياناً في [الليل] أفتح ُ عيني َ ..

وأتفقد ُ جسمي ..

وأعرف ُ مقاس َ ساقي تماماً ..

وأقيسه ُ كل َ [ليلتين ِ] أو أكثر ..

ذات َ مرة ٍ وأنا أقيس ساقي ..

أحسست ُ بـ حركة ٍ قرب َ الموقد ..

وإذ بـ الليل ِ يبكي ..

حينها ترنحت ُ وسقطت ُ من خيبة ِ الأمل :

المشرفة ُ حبست [الليل َ] في المينم ..!

(10)

تعرفت ُ على صبية ٍ في الحي َ القريب ..

وكنت ُ أركض ُ مع أحدهم ..

كان َ [أبرصاً] ..

وكان َ الأطفال ُ ينهامسون َ إذا مشيت ُ قربهم ..

وذات َ مرة ٍ استوقفت ُ صديقي وسألته ُ عن هذا البرص ..

قال َ أنه ُ حينما كان َ صغيراً جداً ..

أحضر َ أباه ُ [شمساً] كبيرة ً إلى المنزل ..

ووضعها على الطاولة ..

وكيف َ أنه ُ جيئة ً وذهاباً كان َ يقضم ُ من هذه ِ الشمس ..

وفجأةً أخذهُ أبوهُ إلى الطبيب ..

وكانَ ساخناً لـ أنهُ أكل [الشمس] ..

حينها ؛ وبعدَ أيام قليلة ..

بدأ جلدهُ [يُشرق] ..!

إعتذرتُ لـ صديقي ..

وأخبرتهُ بـ ضرورةِ عودتي إلى المنزل ..

وفي طريقِ العودةِ :

استدرتُ عندَ حاويةِ نفايةٍ في زاويةِ الحيَ ..

وأخرجتُ الشمسَ من جيبي ..

وألقيتها في الحاويةِ وركضت ..!

[الليلُ] كانَ غاضباً مني ..

غاضبُ لـ أنني ألقيتُ الشمسَ في حاوية ..

وأخذ يوبّخني طوال [الليل] ..!

(12)

استندتُ على سورِ الحديقة ..

بعدَ أن ركضتُ طويلاً هارباً من المنزل ..

استغليتُ فرصةَ غيابِ المشرفة ..

- كانت غائبةً لـ ما يُقارب الأسبوع -

وفي غيابها عطفت عليَ امرأة ٌ شابة ..

كانت تغسلني بـ ماءٍ دافئ ..

ولا تهدئني بـ حبسي مثلما دُبسَ الرجل ..!

ذاتَ مساءٍ ودعتني ..

وقالت أنَ المشرفة َ سـ تعود ..

وأنها سـ تشتاقُ إليَ ..!

لم أتذكر إن كنتُ بكيتُ أو لا ..

لكنني ودَعتُ الليلَ قربَ الموقد ..

بعدَ فشلي في إقناعهِ بـ الهرب ..

وركضتُ كثيراً ..

وبعدَ كلَ مسافةٍ أقطعها ..

أنظرُ إلى المينم ..

وأراهُ صغيراً ؛ وأسأل :

كيفَ كانَ يتسعُ لي ولـ من كانوا معي ..؟

إستندتُ على سور الحديقة ..

بعدَ أن ركضتُ كثيراً هارباً من المينم ..

حينها توقفتْ عربة ُ أحدهم ..

وترجلت إمرأة ٌ يُشبهُ صوتها صوتَ المشرفة :

ماذا تفعلُ هنا هذهِ الساعة ..!

(13)

الصندوقُ كـ ما هوَ [أسفلُ النافذة] ..

والحجرة ُ في أعلى البرجِ كانت باردة ..

لم أعرفْ بعدُ ما هوَ المطر ..

فـ في الميتم النوافذُ عاليةً جداً ..

لا نرى منها سوى [الشمس] ..!

وأتذكرُ كيفَ كانَ الصبيةُ في الصباحِ يهزؤونَ مني ..

حينَ يقولونَ من أينَ [نزلَ] المطر ..؟

فـ أقولُ لهم :

من هنا ، وأنا أشيرُ إلى أعلى بنايةٍ في المدينة ..!

في هذهِ الأثناء تعجبتُ من النافذة ..

وكيفَ أنها كانت تبكي ..

ويقطرُ [الماءُ] منها ..

فـ صرختُ :

النافذةُ تبكي ، النافذةُ تبكي ..!

وسمعتُ صوتَ المشرفةِ تقول :

سـ أحبسكَ أيها الـ .. ..!

(14)

صديقي أرسلَ لي بريداً ..

فتحتهُ المشرفةُ في غيابي ..

عندما عدتُ أعطتني ورقةً مجعدة ..

كنتُ أقرؤها بـ شيءٍ من الصعوبة ..

ومنها عرفتُ أنَ صديقي كـ ما يقول :

قد التحقَ بـ مدرسةٍ نموذجية ..

كنتُ أسألُ المشرفةَ عن بعض الكلمات ..

والتي كانت تجيبني بـ إستهزاء ..

وأحياناً تصرخُ ولا تجيبني ..

لكنني رغمَ هذا :

أكْمِلُ قراءتي متمدداً على صدري ..

وساقيَ يتطايرانَ في الهواء ..!

في نهايةِ الرسالةِ قالَ صديقي :

" أرجوا أن يُعجبكَ الملبَس "

ها أنا ذا أعودُ لـ قصصي القديمة ..

وأتخيلُ شكلَ الملبَس ..

لكنني لم أتخيلهُ " عارياً " مثلاً ..!

لم أتخيلْ شكلهُ أبداً رغمَ المحاولات ..

حينها سألتُ المشرفةَ عن الملبَس خاصتي ..

حذرتني بـ أنهُ إن لم أكفَ عن تهيؤاتي سـ تحبسني ..!

وضعتُ الرسالةَ في جيبي الأيسر ..

خوفاً من أن تـُشرقَ إن وضعتها في الأيمن ..!

ونمتُ حتى الصباح ..

وعندما إستفقتُ تذكرتُ [الليل] ..

وكيفَ أني لم أسألهُ عن شكل الملبَس ..

قمتُ مسرعاً إلى خزانةِ ثيابي ..

والتي لم تكُنْ في العليةِ كـ الروايات الحزينة ..

كانت خزانةُ ثيابي حقيبةً لـ أحد أفراد الجيش ..

والذي أودِعَ ابنهُ في الميتم بعدَ وفاته ..

وحينَ إنتهيتُ من إرتداءِ الثياب ..

خرجتُ إلى الفناءِ الخلفيَ ..

وبدأتُ ألعبُ في أرجوحةٍ صنعها أطفالُ :

لم أرَهم في المينم من قبل ..

لكنني كنتُ أسمعُ عنهم بعضَ القصص من المشرفة ..

حينها إنتبهتُ لـ الطفل الذي يرافقها يقول :

" لقد أضعتُ آخرَ قطعةٍ من الملبَس "

حزنتُ كثيراً يا صديقي ..

حزنتُ كثيراً لـ أنني لم أتعرف على شكله ..!

(15)
الأربعاءُ الأكثرُ حزناً ..

كانَ المنزلُ الفخمُ أمامنا يعجَ بـ الناس ..

وكانَ صوتَ مزعجَ يصدرُ عن إحدى العربات ..

منعتني صاحبةُ الأنفِ الطويل من الخروج ..

وكانت تختلسُ من شقَ البابِ النظر ..

وأمامها الطفلُ الذي يرافقها دائماً ..

والذي كانَ مدللاً جداً ..

لم أفهم لمَ كانت تفضلهُ عليَ ..

- الحياةُ مليئةُ بـ الأشياءِ التي لا أفهمها -

منها الصوتُ المزعج ..

والأربعاء الأكثرُ حزناً ..

والمنزلُ الفخم ..

الذي اشتراهُ رجلُ ثريٍ يُدعى " زيس " ..!

(16)
الكلماتُ التي أنطقها ..

لم تعد بـ الشكل الذي أريد ..

مرةً وحينَ كنتُ أسقي الشجرةَ في الحديقةِ الخلفية ..

شعرتُ بـ هواءٍ يتجمعُ داخلي ..

وشعرتُ أني سـ أستفرغ ..

لكنني لم أستفرغ ..

تجشأتُ كـ طفلٍ لا يعلمُ لـ هذا الفعلِ اسماً ..!

وحينَ كانت هذهِ أولَ مرة ..

فـ قد أغمضتُ عينيَ ..

وأحسستُ بـ مخاضِ رئتيَ وجوفي ..

لكنني فتحتُ عينيَ مجدداً ..

ووجدتُ سنجاباً ..!

دهشتُ كثيراً ..

فـ المشرفةُ نكرهُ السناجب ..

كنتُ أفكرُ دائماً أنَ أنفها سـ يُصبحُ أطول ..

لـ ذلكَ هيَ لا نريدُ لـ سنجابٍ أن يعيشَ داخله ..!

لكنني اكتشفتُ أنها نكرهُ السناجبَ لـ سببٍ آخر ..

هوَ ذاتُ السببِ الذي جعل المرأةَ في المنزل المجاور :

نصفها أخرس ..!

في تلكَ الأثناء سمعتُ الطفلَ الذي يُرافقُ المشرفةَ يبكي ..

ويتمتمُ بـ أشياءَ لم أتبيّنها ..

لكنني انتبهتُ لـ اسمي من بينِ كلماته ..

وحالاً بدأتُ أركضُ إلى أقصى طرفٍ في الحديقةِ الخلفية ..

إلى أن تعثرتُ بـ غصنٍ مائلٍ من أعلى شجرةٍ عجوز ..

ولـ أنني بريءٌ كـ ما قالتْ لي الشابةُ التي اعتنتْ بي :

في غيابِ المشرفةِ منذ بضعةِ أسابيع ..

فـ قد كلمتني الشجرة ..

وتحققتْ كلماتُ الشابة اللطيفة :

سـ تكلمكَ عجوزٌ لم يلدها رحمٌ ؛ لكنها خرجتْ بـ أيادٍ كثيرة ..!

لم أفزع حينما كلمتني الشجرةُ المهملة ..

لكنني حزنتُ لـ أنَ صديقي ليسَ معي ..

ولم يعرف [شكلَ] الشجرةِ التي تتكلم ..!

قالتْ : حذارِ من الركض بـ هذهِ الطريقة ..

وحينَ تكلمتْ مرةً أخرى :

غبتُ عن الوعي ..

وأفقتُ بعد مدةٍ يعلوني وجهُ امرأةٍ أمقتها ..

صوتُ امرأةٍ لم يُصبح أنفها طويلاً بعد ..!

(17)

أصبحَ الثلجُ يملأ المكان ..

كانَ الخروجُ في الشتاءِ صعباً ..

لا أملكُ حذاءً مرتفعاً كـ ما يملكهُ طفلُ المشرفة ..

- الآنَ فقط عرفتُ من هوَ -

الشتاءُ كانَ جميلاً بـ النسبةِ لي ..

فـ حينما أتكلمُ أشعرُ وكـ أني ننينَ بارد ..

يُخرجُ الدخانَ من صدرهِ تلقائياً ..

لكنني كنتُ أخشى أن يحترقَ داخلي ..

وكانَ الأمرُ غريباً تلكَ الأيام ..

فـ في الصيفِ وحينَ كانت الشمسُ تبللُ وجوهَ الأطفال ..

لم يكن لزاماً عليَ الاستحمامُ يومياً ..

بـ الرغم من أنَ المشرفة َ كانت تقول :

الماءُ الذي نسكبهُ عليكَ نشربهُ أقدامكَ ..

لكنكَ كـ شجرةٍ منعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر ..!

وفي الشتاءِ كنتُ أجتهدُ يومياً لـ أخذِ حمامٍ دافئ ..

هذا على الأقلَ ما كانَ يُنسيني وجبة َ الغداءِ الناقصة ..

وفي يومٍ ارتفعتْ حرارتي ..

وأيقنتُ أنني أحترق ..

وكنتُ أتمنى ألا [أ ُشرقَ] كـ صبيَ الحيَ ..

وبَخنني المشرفة ُ كثيراً ..

فـ هيَ لا تريدُ أن تسهرَ في الميتم ..

ولا أعرفُ لـ ماذا أيضاً ..

الذي يهمني الآنَ :

هوَ ألا أ ُشرقَ كـ صبيَ الحي ..

أو أن يتهامسُ الأطفالُ إذا مررتُ من أمامهم ..

بعدَ أيامٍ أصبحتُ طبيعياً ..

وكـ العادةِ بدأتُ أقيسُ طولَ ساقيَ ..

وأجربُ صوتي :

لا لا ؛ لا لا لا لاااااااااا ..!

(18)

" زيس " ؛ الرجلُ الذي اشترى المنزلَ المجاور ..

كانَ يُقيمُ عدةَ حفلاتٍ أسبوعياً ..

منذ ذلكَ الوقت أصبحُ الطعامُ يملأ الميتم ..

كانَ شهياً وغريباً ..

وكنتُ أكرهُ الشيءَ الأبيض الذي بـ داخلهِ مشط ..!

مرةً ابتلعتُ أحدَ هذهِ الأسنان ..

وأتذكرُ جيداً أنني صرختُ وركضتْ ..

حتى ضجرت مني المشرفة ..

الآنَ هي عجوزٌ تضجرُ دائماً لـ أقلَ شيء ..

أمسكت بي ..

وبدأتْ تلقمني ملاعقَ من الخلَ ..

كنتُ أبكي كثيراً ..

لكن ، وسرعانَ ما زالَ سنَ المشط من داخلي ..

لـ أولِ مرةٍ تحتضنني المشرفة ..

لـ أولِ مرةٍ ألمسُ ذلكَ الكائن الهائل ..

ولـ أولِ مرةٍ أيضاً تمنيتُ أن تحبسني ..!

(19)

اليومُ الذي تلى العيد كنتُ أسيرُ وحيداً ..

بعدَ أن انسخت ملابسي بـ ماءٍ تطايرَ من عربةٍ مسرعة ..

الأمرُ يُربكني ..

فـ حينَ أعودُ سـ أضطرُ لـ غسل ملابسي ..

الأمرُ الذي يجعلني عارياً مدةَ مساءٍ كامل ..!

(20)
ذلكَ الصغيرُ الذي يُسمى [حزن] ..

انسلخَ من جسدي ذاتَ ليلةٍ ..

واشتهر ..!

(21)
الأحدُ [أصغرُ] الأيام ..

لـ ذلكَ أعفوهُ عن العمل ..!

(22)
قبلَ سنينَ من الآن ..

أوقفتني امرأةٌ في الطريقِ المؤدي إلى الوادي ..

وقالت لا تبكـِ ؛ سـ تشعرُ بـ وخزٍ بسيط ..

ثمَ رفعتْ ذراعي قليلاً ومسحتهُ بـ منديلٍ مبلول ..

وحقنتني ..!

الجرحُ كانَ ضئيلاً ..

كانَ صغيراً لـ درجةِ أنني انتظرتُ خروجَ نملةٍ منه ..!

في المساءِ انتفخَ ذلكَ الجزءُ من يدي ..

وتذكرتُ كلامَ المشرفة :

الماءُ الذي تسكبهُ عليكَ تشربهُ قدماك ..

لكنكَ كـ شجرةٍ منعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر ..

وقلتُ :

الآنَ عرفتُ لمَ تضخمَ الجرح ..!

كنتُ أنتظرُ أياماً كثيرةً لـ تطولَ ذراعي ..

وكنتُ أقيسها يومياً بـ خطٍ مرسومٍ على الجدار :

أقفُ على يديَ معلقاً في الهواءِ جسدي ..

وأنظرُ إلى الخطِ وذراعي ..

لم تطل يدي أبداً ..!

ولـ ذلكَ قررتُ أن أبحثَ عن المرأة قربَ الوادي ..

انتظرتها طويلاً حتى غابت الشمس ..

وندمتُ على رميي الشمسَ في الحاوية ..!

(23)
كانَ النهارُ هادئاً ..

والعصفورُ الذي أستفيقُ على صوتهِ لم يأتِ ..

لـ ذلكَ نمتُ طويلاً ..

طويلاً جداً لـ مدةٍ تكفي :

لـ قطع المسافةِ حولَ رأسي مرتين ..!

(24)
امتلكتُ صندوقاً موسيقياً ..

أرسلهُ لي صديقي ..

كنتُ لا أستطيعُ فتحهُ كلَ الوقت ..

فـ قد كانَ يُزعجُ طفلَ المشرفة ..

والذي حاولَ كثيراً أن يكسره ..

الجميلُ فيهِ أنهُ صغيرٌ لـ درجةِ وضعهِ في جيبي ..

كانت الموسيقى التي تخرجُ منهُ رائعة ..

أشعرُ معها بـ طعمٍ لـ كلَ شيء :

الهواءُ منديلٌ معطر ..

الماءُ شابةٌ لطيفةٌ كانت تعتني بي ..

البردُ هواءٌ خائفٌ حتى أصبحَ أزرقاً ..

المدينةُ بـ رمتها حصانٌ نائم ..

وأعرفُ طعمَ الحصان ..

مرةً كادَ يدهسني حصانٌ بـ حافريهِ الأماميين ..

وحينَ سقطتُ ..

وكانَ هوَ " منتصراً " يركضُ في الهواء ..

رجعَ إلى الوراء ..

وجعلَ ينظرُ لي بـ عينيهِ الكبيرتين ..

في بادئ الأمرُ ظننتُ عينيهِ :

زيتونتانِ أهملهما مزارعٌ فـ جعلتْ تكبرُ وتكبر ..

لـ ذلكَ لمعتْ عينهُ فـ اهتز رأسهُ قليلاً ..

حينها أدركتُ أنَ الحصانَ طعمهُ " عنيد " ..!

كلَ الأشياءِ كنتُ أعرفُ طعمها ..

وحينَ أسمعُ الموسيقى ..

أعرفُ شكلها أيضاً ..

إلا الملبَس ..

فـ الموسيقى يا صديقي :

لا تعرفُ أيضاً شكلَ الملبَس ..!

(25)

أستخدمُ عقلي الصغير جداً لـ أتذكرَ الحروف ..

وأتذكرُ الكلماتِ التي كنتُ أقرؤها ..

في صغري كانت الكلماتُ أسهل ..

إذ حينما لا تنطقها بـ الشكل الصحيح ِ :

لا يحدثُ شيء ..!

لكنني كبرتُ الآن ..

وأصبحَ ما أنطقهُ خطأً هوَ سببُ وجيهُ لـ " العلية " ..

وعرفتُ ذلكَ حينما أخطأتُ وقرأتُ :

الـ " ورد " " قرد " ..

وظنت المشرفة ُ أنني أهزأ بـ اسم طفلها ..!

(26)

كانَ في وُسعي قضاءُ [الليل ِ] هكذا ..

الكلماتُ التي أتمتمُ بها لـ [الليل] لم تعد مهمة ..

كانَ صديقي الجديد هذا قربَ الموقدِ دائماً ..

لم يعُد يتحدثُ معي ..

مرة ً شكوتُ ما يحدثُ لـ الشجرةِ العجوز ..

أخبرتني أنني كبرت ..

وتغيرت لغتي ..

أريدُ أن أعودَ صبياً صغيراً ..

أريدُ أن أتحدثَ مع الأشياء ..

فكرة ُ حبس نفسي داخلَ المشرفةِ لم تجدِ ..

فـ حينما شاغبتُ وشاغبتُ وشاغبتُ ..

ظننتُ أنها سـ تحبسني ..

لكنني إكتشفتُ أنها لم تعد قادرةً على ذلك ..

أو لم تستطع إلا مرةً واحدةً مع الرجل ..

خابَ ظني كثيراً ..

وأصبتُ بـ إحباطٍ جعلني عازفاً عن الأكل ..

قميصي الأحمرُ اتسخَ كثيراً ..

لم يعُد يهمني أن أكونَ عارياً بعد ..

أن أغسلَ ملابسي لـ نهارٍ كامل ..

أو لـ مساءٍ ناقص ..

[الليلُ] ؛ والذي لم يعُد يتحدثُ معي ..

غادرَ المينا ..

وبقيتُ وحيداً والموقدُ القديم ..

الأشياءُ حينما تكبرُ تفقدُ قيمتها ..

تفقدُ قدرتها على التحدثِ معك ..

الموسيقى حينما كبرت ..

صارت تـُعطيني طعماً مختلفاً عما كنتُ أعرف ..

ذاكرةُ الموسيقى إهترأت ..!

(27)

طفولتي كانت بسيطة ..

لـ درجةٍ تعجزُ معها ذاكرتي :

أن تأتي بـ تشبيهٍ بلاغيٍ واحد ..!

هذا [اليومُ] الجاثمُ على صدري ..

وَ [الغدُ] المحذوفُ من الحكاية ..

هذا [المساءُ] الأحمق ..

[الجرحُ] الغائر ..

[الوترُ] المقطوع ..

هذا يا صديقي ما أجدهُ دائماً ..

الميتمُ [لعنة ٌ] قامَ بها إنسانَ غبيَ ..

سجنُ أطفال ٍ بـ مسمّى ً بريء ..

يا صديقي ؛ فـ انتشلني من هنا ..

المشرفة ُ ؛ دودة ٌ تنخرُ قواي ..

المشرفة ُ ؛ أمَ لا تمارسُ وظيفتها بـ عدل ..

الميتمُ ليسَ مبنى ً ذا برجين ..

بل [حمارٌ] واقفٌ بـ أذنيه ِ الطويلتين ..

هذا الصوتُ الخارجُ من الموقد ..

والهمسُ الذي يلجُ العلية ٌ :

من هواء ٍ ضلَ الطريقَ إلى رئتيَ ..

هذا كلهُ يجعلني أتكلمُ وحيداً ..

وأرسمُ طفلاً بـ أسنانَ حادة على الحائط ..

وأنا أرى فكَ أحدهم موشوماً على ذراعي ..

أنا أذوي يا صديقي ..

وأضعفُ تدريجياً ..

وحينَ أريدُ أن ألهو قليلاً :

أضعُ كلتا يديَ في كمٍ واحد ..

وأصافحُ اليدَ الأخرى في الهواء ..!

(29)

اليومُ الأولُ خارجاً بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من " العلية " ..

الهواءُ رطبٌ جداً ..

والمكانُ لم يتغير ..

عرفتُ الديكَ كما أعرفهُ منتصباً ..

كنتُ أتعجبُ من أنَ الديكَ لا يصيحُ خلالَ الظهر ..

وحينَ ألحقُ وراءهُ لا يعرفني ..

بل يهربُ مختبئاً عني في أماكنَ ضيقة ..

مشيتهُ التي يسبقهُ فيها رأسهُ ؛ مضحكة ..

لكنهُ لطيفٌ رغمَ عن هذا ..

مرةً أوشكتُ على الإمساكِ به ..

وحينَ اقتربتُ كثيراً سقطت ..

فـ جاءَ واعتلى ظهري ..

وأخذ يصيح ..

خرجت المشرفةُ على صياحهِ الذي أزعجها ..

فـ وجدتني ملقىً على الأرض بـ جرحٍ في ساقي اليُسرى ..

أخذتني المشرفةُ ووبَختني طويلاً ..

وبعدَ أن نزفَ الجرحُ لـ فترةٍ ترضيها ..

ضمَدته ُ بــ انزعاج ..

وأنا أنظرُ بــ تمعن ٍ لــ يديها المرتجفتين ..

الدمُ الخارجُ مني لم يكن أخضراً ..

أو أحمرُ جداً ..

كانَ دمَ بريءٍ لــ درجةِ أنني تخيلتُ :

أنهُ ســ يرفعُ يديهِ في السماء استسلاماً ..!

الديكُ الذي أخبرَ المشرفة َ عن جرحي ..

الذي نبَهها عن طفل ٍ لا أمَ له ..

لا أبَ يحملهُ على كتفيهِ ويركض ..

لا أخوة َ يتشاقى معهم ..

ويتفقُ على سرقةِ تفاحةٍ من بابِ دكان ٍ مُغلق ..

ذلكَ الديك ..

كانَ وفياً جداً ..

لــ درجةِ أنهُ صارَ يوقظني بدلاً من العصفور ..!

(30)

الأيامُ لا تمضي سريعاً ..

بينما المشرفة ُ تكبرُ في السنَ ..

وباتَ يصدرُ صريرَ حينما تتحرك ..

أو حينما تتحدث ..

كــ أنَ فمها بابَ خشبيَ قديم ..

وكـ أنَ مفاصلهُ إهترأت ..

" وأنا تعبتُ كثيراً من ترديد : أنفها لم يُصبح طويلاً "

قالت بـ صوتٍ هادئ :

يوماً ما سـ تكونُ حُراً ؛ لكنَ ذلكَ اليوم بعيد ..

ليسَ وأنا هنا ..!

إمتعضتُ كثيراً ..

وقطبتُ جبيني بـ قوة ..

أغمضتُ عينيَ وصرخت :

أنتِ إمرأة ٌ حلـَت عليها لعنة ٌ قديمة ..!

حينها ؛ وبـ برودٍ شديدٍ صفعتني ..

صفعتني لـ أستفيق من " شرودي " ..!

(31)
المنظرُ من سقفِ الميتم ِ جميل ..

هذا مخبأ ٌ لا يعرفهُ أحد ..

هذا مخبأ ٌ لم يعرفهُ أحدٌ بعد ..

إلا صديقي القديم ..

أووه ؛ لم أخبركم بـ إسمهِ من قبل ..

ولكن قبلَ هذا سـ أخبركم شيئاً :

السماءُ التي تمطرُ بـ هدوءٍ هيَ عيناه ..

ويدهُ الصغيرة ُ جداً ؛ كانت تحملُ أضعافَ حجمها من الألم ..

حينَ يدفنُ يديهِ في الثلج ..

أسمعُ أنيناً لـ الأرض ..

أسمعُ حركةً في القشرةِ السفلى ..

وحركةً في آخرِ المدينة ..

كانَ وفياً كـ مواعيدِ الشتاء ..

وفياً كـ هجرةِ طيور ..

ودافئاً كـ كوبِ شاي ..!

لن أخبركم عن صديقي ..

سوى ما يعرفهُ [الليلُ] عنه ..!

(32)

من قالَ أنَ التاريخَ يُعيدُ نفسه ..؟

إن كانَ هذا صحيحاً :

فـ من أينَ جاءَ الميتم ..

لم يكن في التاريخِ ميتمٌ من قبل ..

لم يكُن هناكَ ملبَسٌ مسروق ..

ولا امرأةٌ نصفُ خرساء ..!

اللونُ الأخضرُ يُعجبني ..

حينَ مررتُ على بائعِ خضارٍ في السوق ..

أعجبتْ بـ أصابعَ خضراءَ جميلة ..

وقفتُ مندهشاً من لينها ..

ومن دقةِ أطرافها كـ إبرةِ عملاق ..!

وقلتُ :

أصابعُ من هذه ..؟

ضحكَ البائعُ الذي أعطاني واحدةً منها ؛ وقال :

فقط ضعها في الماءِ حتى تنضج ..!

لم أصدق نفسي ..

الهدايا لم أعرفها منذ زمن ..

منذ سنتين ٍ ونصف من زيارةِ صاحبي القديم ..

ذهبتُ إلى الميتم ..

وأنا أخبئُ أصبعَ أحدهم في جيبي ..

كنتُ مطمئناً ؛ فـ لا توجدُ أناملَ في هذا العالم نـُشرق ..!

وصلتُ وفتحتُ البابَ وخلعتُ نعليَ وغسلتُ وجهي ..

يا الله ؛ كلَ هذهِ الأفعالُ دفعةً واحدة ؛ أمرَ مؤسف ..

وحينَ انتهيتُ من هذا كله ..

أخرجتُ الأصبعَ وربطتهُ في يدي ..

في بدايةِ الأمر احترت :

فـ هوَ أطولُ من جميع ِ أصابعي لو رصَصْتها فوقَ بعضها ..!

لكنني اخترتُ المكانَ المناسبَ لهُ تماماً ..

أعلى الوريد في ظهر كفي الأيمن ..

كانَ جميلاً ..

أصبعٌ لا ينحدثُ بـ [أظافرَ] أطولُ من اللازم ..!

فجأةً ؛ تذكرتُ ما قالهُ البائع ..

وذهبتُ لـ إحضار ِ دلو ماء ..

ووضعتُ يدي فيهِ لـ نهار ٍ كامل ..

وحينَ تعبتْ ..

أغمضتُ عينيَ ..

أنا لا أريدُ أن أرى فروعاً تخرجُ من يدي ..

ولا أريدُ أن تطولَ يدي أكثر ..

أنا أوبّخُ نفسي حينَ تذكرتُ كلامَ البائعِ وَ نسيتُ كلامَ المشرفة :

" الماءُ الذي تسكبهُ عليكَ تشربهُ قدماكَ

لكنكَ كـ شجرةٍ متعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر "

وأهجسُ :

ماذا لو فشلتْ قدميَ في شربِ الماء ..

ونجحتْ في ذلكَ يدي ..!

(33)
سـ أصومُ هذا اليوم ..!

- قالتْ المشرفةُ ذلكَ -

وأنا التقتُ بـ سرعةٍ لـ كلمةٍ جديدة :

أصوم ..!

ماذا تعني بـ حديثها ..؟

في الغالبِ كانَ ما تقولهُ المشرفةُ يعني أمرينِ فقط :

التوبيخُ ؛ أو الحبس ..!

وحيثُ أنها لا تستطيعُ حبسي كـ رجلٍ جديد ..

فـ إنها تستمرَ في توبيخي كثيراً ..

الأمرُ الذي دفعني إلى تجاهل ما تفعلهُ بي ..

لكني لا زلتُ أفكرُ في هذهِ الكلمة الجديدة ..

لم يُجدِ التفكيرُ بها طوالَ النهار ..

فـ نمتُ ممتعضاً ..

لكنني حلمتُ بـ المشرفةِ تقول :

[أصوم] ..!

كانت تقتربُ من وجهي في المنام ..

كانت تقتربُ حتى أصبحَ رأسي كاملاً في فمها ..

فمها الذي يحملُ سناً واحداً ..

سنُ رُسِمَ عليهِ ملامحُ قديسٍ قديم ..

قمتُ فزعاً ..

قمتُ أركضُ طويلاً ..

حينها ..

رأيتُ المشرفةَ في فناءِ المبنى ..

كانت تبكي ..

وتقولُ سامحني يا .... ..

لـ ماذا أسامحُ امرأةً سـ يكبرُ أنفها ..

ويعيشُ بهِ سنجاب ..!

(34)

أيامي باتت أقصر من المعتاد ..

فـ النومُ الإجباريَ مبكراً ..

صارَ عقاباً جديداً لي ..

لم أكن أهتمَ كثيراً لـ هذا ..

لكنني أحتاجُ وقتاً أطولَ كلَ يوم ..

لـ ينمو أصبعي الجديد ..!

(35)

لو كانَ لـ الصوتِ [لونُ] :

لـ عرفنا وجهَ الريح ..!

(36)

الطفلُ النائمُ قربي جديدُ على هذا المكان ..

أتذكرُ كيفَ أتى مساءً ..

وكيفَ استقبلتهُ المشرفةُ بـ ابتسامةٍ وأخذت تلاعبه ..

وأنا في نفسي أقول :

سـ تتمنى أيها الجديدُ أن يُصبحَ أنفها طويلاً ..!

والمرأةُ التي أحضرتهُ كانت غريبة ..

فـ كلماتها لم تتعدى كلماتِ رجلٍ يُسلمُ بضاعة :

هذا هوَ ..!

كيفَ " هذا هوَ " ..؟

في اليوم التالي عندما أفقنا ..

أخذتُ أرتبُ غطائي القصير ..

وما زالَ الولدُ نائماً ..

كنتُ أريدُ إيقاظهُ لكني قلتُ في نفسي :

دعهُ يأخذُ درساً ولا يحتاجُ بعدها إليَ ..!

ولم يُكملْ ضميري - الذي لا يريدُ أن يؤذي هذا الصغيرُ - كلامهُ :

حتى أنتِ المشرفةُ بـ قش التنظيف ..

الذي سقطَ عامودياً على رأسه ..!

فزَ ذلكَ الطفلُ خائفاً ..

وأشارتْ إليهِ بـ يدٍ ثابتةٍ كـ فزاعةِ حقل ..

هذا يعني إلى الحمّام ..!

عوّضتُ صديقي الجديدَ عن هذا الألم ..

ورتبتُ عنهُ غطاءه ..

لكنَ هذا الأمر لم يُعجب المشرفة ..

فـ قالت :

لا وجبةَ إفطارٍ لكَ هذا اليوم ..!

لا يهمَ ..

فـ أنا منذ ثلاثةِ أسابيعَ لم أتناولْ وجبةَ الإفطار ..!

خرجتُ الآنَ إلى الفناء الأماميَ ..

هذا الفناءُ الذي سقطَ بهِ رجلُ أسود ..

كانَ يضربهُ ربَ عملهِ بـ قسوة ..

ولم يتجرأ أحدُ على إفلاتهِ منه ..

فـ الأمرُ طبيعيَ في هذهِ الأنحاء ..!

صديقي ليسَ أسوداً ..

وإلا لـ ما أتى إلى الميتم ..

هذا الأمرُ الوحيدُ الذي يُفرحني ..!

شعرتُ بـ صوتِ أحدهم خلفي ..

وحينَ التفتُ وجدتُ الطفلَ وبـ يدهِ قطعةُ خبز ..

كنتُ حليقَ الشعرِ حينها ..

أما هوَ :

فـ شعرهُ كثيفٌ كـ [مشروعِ غوريلا] فاشل ..!

ضحكتُ كثيراً عندما رأيته ..

لكنهُ مدَ بـ يدهِ التي تحملُ الخبز ؛ وقال :

هذا لـ إفطارك ..

حينها دُهشت ..

صوتهُ يشبهُ تماماً صوتَ [الفراولة] ..!

(37)

ماذا سـ يفعلُ المتهم ..؟

يُوكلُ محامياً ..

وبعدَ زمنٍ يُرافعُ عن نفسه ..

وبعدَ ذلكَ يُصبحُ مستمعاً ..

ثمَ شاهداً ..

ثمَ ضحيةً ..

ثمَ طليقاً ..

ثمَ يُوكلُ محامياً آخرَ يُعوضهُ عن عمرهِ عندما كانَ طليقاً ..

فـ صارَ فجأةً ضحيةَ أحدهم ..

بعدَ أنْ كانَ شاهداً [يستمع] ..

ثمَ يُرافعُ عن نفسهِ فترةً قبلَ أن يُوكلَ محامٍ ..

لـ يؤولَ بهِ الأمرُ إلى منهم ..!

(38)

في طريقهِ إلى الخارجِ ؛ قالَ صديقي :

ماذا حلَ بـ الشجرةِ العجوز ..؟

قلتُ أتعرفها ..؟

قالَ لا ؛ لكني سمعتُ عنها ..

تعجبتُ كثيراً وصمتُ ..

وتداركتُ صمتي بـ الركضِ إلى الشجرةِ العجوز ..

قربَ الشجرةِ توجدُ حفرةً عميقة ..

مدخلها بـ حجمِ قبضةِ أحدهم ..

في بادئِ الأمرِ ظننتها فماً تتنفسُ منهُ العجوز ..

وبعدَ مدةٍ قلتُ عنها أنها عينَ فقأها العطش ..!

ثمَ انتهيتُ إلى خلاصةٍ نقولُ :

أنَ الحفرةَ هيَ منزلُ ابنُ الشجرةِ الذي خبـأتـهُ فيهِ ..

خوفاً عليهِ من المشرفة ..!

(39)

المرأةُ التي أحضرتْ صديقي الجديد ..

كانتْ تترددُ على المكانِ بـ شكلٍ متفاوت ..

وحينما تحضرُ كانتْ تضعُ قبعةً دائريةً كبيرة ..

فـ نشبهُ " زحلَ " في المساء ..

إلا أنها لا تدورُ حولَ المينم ..

بل تقفُ على مسافةٍ تكفي لـ تفرَس ملامحِ أحدهم ..

المرأة ُ التي أحضرتْ صديقي الجديد ..

كانت تعرفُ أنني اكتشفتُ من هي ..

لـ ذلكَ أحضرتْ لي قطعة َ حلوى ..

وأوصتني أن أعتني بـ الطفل ..

منذ هذا الوقت ..

وأنا أشي إليها بـ أخباره ..

وما أن علمتِ بـ ذلكَ المشرفة ..

حملتني إلى العلية ..

ووضعتِ الصغيرَ الآخرَ في القبو ..

بعدَ مدةٍ أخرجتنا وصرنا نتجاذبُ حديثنا ..

أخبرني عن الفئران ..

فـ ذهبتُ بـ خيالي لـ أعرفَ شكلَ الفأر ..

لكني نسيتُ كيفَ أعرف شكلَ الأشياء ..

فـ أعدتُ الذاكرة َ منذ بدايتها :

فراولة ..

ملبس ..

طعمُ الحصان ..

أصبعُ أخضر ..

وفجأة ً اكتشفتُ شكلَ الفأر ..

حينَ وجدتُ الجرحَ الغائرَ في يدِ صديقي ..

حينها أدركتُ أنَ الفأرَ يأخذ شكلاً " جائعاً " ..

يأخذ ُ شكلاً يُنقنُ اقتناصَ اللقمة ..!

(40)

مائت المشرفة ..!

يا إلهي لا أصدق ..

خبرُ نزلَ كـ صاعقةِ ليل ..

فـ ركضتُ إلى أعلى المينم ..

وأخذتُ أصرخُ كـ ذئبٍ يعوي :

مائت المشرفة ..!

لم يُشعلْ أحدهم مصباحهُ في ذلك الليل ..

يبدو أنَ المشرفة َ لا تحظى بـ شعبيةٍ في الحيَ ..

ولا يكترثُ لها أحد ..

مائت المشرفة ..

وأنا أخذتُ في اللهو طوال [الليل] ..

ولم أفكر مطلقاً في شكل الموت ..

أو طعمهِ الغامض ..

كنتُ أعلمُ مسبقاً بعدَ موتها ..

أنهُ حامضُ لـ درجةِ الاختناق ..

جثة ُ المشرفةِ اختفت ..

حملها أحدُ المسافرينَ ذو الوشاحِ الأسود ..

وسارَ يجرُها خلفهُ بـ حصانه ..

المشرفة ُ التي لـ طالما وبَخنني ..

التي إحتضننني مرة ً واحدة ..

وبكت لـ أسامحها مرة ً واحدة ..

مانت ..

لـ ذلكَ شددْتُ صديقي من يده ..

ونزلجنا بـ أمانيَ كثيرة ..

أهمها أن أرى أبي ..

ويرى أمه ..

وأقلها أن يرندي ثوباً دافئاً ..

وأن أعرفَ أنا شكلَ الملبَس ..!

آآه ؛ ما أقسى الأيام ..

مانت المشرفة ..

هذا خبرُ أتمنى لو سمعتهُ حقاً ..!

(41)
زيادة ُ الطول ِ تشبهُ كثيراً فكرة ً :

إفلاتُ رأسكَ وكتفيكَ من الجاذبية ..!

(42)
صديقيَ الذين ِ مرا على ذاكرتي يوماً ..

أحدثا ثقباً هائلاً فيها ..

هناكَ من يأتي كـ هدهدٍ ينخرُ جذعَ ذاكرتكـَ لـ يستوطنَ بها ..

وهناكَ من يكتفي بـ الجلوس ِ في الطرفِ القصيَ ..

أما صاحبيَ ..

فـ أخذا جميعَ معاولِ الذكرى ..

وشقـَـا طريقهما إلى الفصِ الأخير من الدماغ ..

وهبطا إليَ كلَ منهم يشغلُ مساحةً تزاحمُ الأخرى ..

هبطا إليَ كـ فجرٍ هائلٍ يبدأ من منتصف السماء ..

وهبطا أخيراً إلى ذاكرتي :

بعضهم لـ بعضٍ عدوَ ..!

(43)
الأشكالُ التي ترسخُ في الذاكرةِ لا تـُمحى ..

حتى معَ نسيانها الضروريَ أحياناً ..

تعودُ إليكَ في شكلٍ " صُدفة " ..!

إلا شكلاً واحداً لا أتذكرهُ :

وجهُ أبي ..!

(44)
لـ المرةِ الأولى حاولتُ الكتابة ..

حملتُ غصناً قديماً لـ شجرةٍ ناضجة ..

وكتبتُ على طينٍ زحفَ إلى بابِ الميتم ..

- طينَ حاولتُ جاهداً ألا يقعَ في يدِ المشرفة -

وكتبتُ :

أبي ؛ حروفكَ الثلاثة تأخذُ نفـَساً كاملاً ..

تأخذُ شهيقاً يدفعُ بـ رئتيَ إلى الأرض ..

وتغمسُ قدميَ في سؤالٍ جارف :

كيفَ أعرفُ وجهكَ ..؟

(45)

بحثتُ عن شخصٍ سواي يعرفُ أنَ :

لـ الميناءِ حنجرةً تُصدِرُ صوتها عنها ..

كـ أنْ يُتمتمَ المرءُ بـ كلماتٍ غير مفهومة ..

ليسَ لـ أنهُ يبكي ..

ذلكَ لـ أنَ لغةَ الميناءِ مُبهمة ..!

(46)

اليتيمُ الذي أحملهُ في داخلي ..

الضميرُ الذي لم ينضجْ بعدُ لـ يؤنبني ..

والعقلُ الباطنُ الذي لم يمتلئ بعدُ بـ أشياءَ كثيرة ..

كلَ هذا الجوفُ الفارغ ..

والصدرُ الممتلئ ..

كلَ تلكَ الأشياءِ التي أخرجها من فمي :

مبعثرةً على الأرض ..

لـ أرتبها من جديد ..

وأغسلُ ما إنسخَ منها ..

وأبتلعهُ لـ يعودَ تلقائياً كـ ما كان ..!

كلَ تلكَ الأشياءِ التي تنسخُ وأخرجها ..

حينما تخرجُ أصبحُ شخصاً آخر ..

أصبحُ صبياً لا يحملُ هماً ..

ولا يُوَبَـخْ ويُحبَسُ في العلية ..

أصبحُ " طفلَ المشرقة " ..!

في القبو نزلتُ أنا وصديقي ..

كنتُ أريدُ الثأرَ من الفأر الجائع ..

لكنَ صديقي حذرني قائلاً :

إنَ أسنانهُ حادة ً كـ مزاجِ المشرفة ..!

لكنني طمأنته بـ أني معتادَ على أمورٍ كـ هذه ..

أخذنا في السير قُـدُماً نحوَ الباب ..

يا الله ؛ كم كانَ صوتُ البابِ موجعاً ..

وكُوَنــهُ نئنَ ..!

وكـ أنَ صوتاً خلفَ البابِ يَصدُرُ من القبو ..

سرنا على رؤوسِ أصابعنا ..

كـ من يحملهم عملاقَ :

ولا تلمسُ الأرضَ إلا أصابعَ أقدامهم ..!

وهناكَ تجلى الشيءُ الضخم ..

الذي اعتدلَ واقفاً ..

يملأ الفروُ جسدَهُ تماماً ..

وأخذ يقرضُ آذاننا بـ كلماته :

من أنتم ..؟

في الحقيقةِ لم أكن خائفاً من ضخامته ..

بل كنتُ خائفاً من صوتهِ فقط ..

صوتهُ يتدحرجُ من حنجرة الجوع ..

صوتهُ أحمقَ يحملُ سكيناً ؛ لا بدَ أن تخاف ..!

أجبتُ الفأرَ الجائع :

لـ ماذا عضَضْتَ يدَ صديقي ..؟

فـ قهقهَ كثيراً ؛ وارتمى أرضاً من شدةِ الضحكِ ..

حينها لم أتمالكْ نفسي ..

وأخرجتُ أصبعي الأخضرَ ورحتُ أطعنهُ في قلبه ..

أطعنهُ في رئته ..

وبـ لمحِ البصر وجدتـُني أطيرُ في الهواء ..

صفعتهُ مؤلمة ..!

كانَ صديقي يبكي كثيراً ..

ويصرخُ لـ الفأر :

سـ نقتلكَ أمي ؛ سـ نقتلكَ أمي ..

لم يكترث الفأرُ لـ ما قالَ الصبيَ ..

وانحنى - فاتحاً فكَيْهِ - نحوي ..

في تلكَ الأثناء ؛ كـ أنَ يداً :

كـ يدِ امرأةٍ اعتنت بي في غيابِ المشرفةِ سحبتني ..

ثمَ صديقي كـ ذلكَ تِباعاً سُحِبْ ..

فتحتُ عينيَ فـ وَجدْتـُني قربَ الشجرةِ العجوز ..

كانت تهتزَ ..

تهتزَ كثيراً أمامنا ..

وكـ أنَ جذورها تتحركُ في الأرض ..

وكانت تنقبضُ إلى الأعلى ..

وتندفعُ إلى الأسفل ..

ويصدرُ صوتَ مزعجَ جراءَ ذلك ..

الشجرة ُ العجوزُ نله ..!

- هذا ما قاله ُ صديقي -

لكنني قلتُ :

الشجرة ُ العجوزُ تقاتل ..

وما أن أنهيتُ حديثي ..

حتى سكنت الشجرة ُ عن الحراك ..

وارتختْ إلى الأمام ..

وظهرَ الدمُ من حفرةٍ قربَ الشجرة ..

ومعهُ فروَ قليل ..!

(48)

الرياحُ تشتدَ في هذا الفصل ..

كم من المؤلم ِ أن يمرَ الشتاءُ عليكَ ..

وأنتَ في كامل ِ عُريكـ ِ من الأشياء ..

كنتُ أشاركُ صديقي اللحافَ الوحيد الذي تبقى ..

بعدَ أن كنا نلعبُ صباحاً في الفناءِ الأماميَ بـ ألحفتنا ..

فـ هبَ الهواءُ وحملَ معهُ لحافَ صديقي ..

بكى كثيراً ..

لكني طمأنتهُ تماماً :

اللحافُ يُصبحُ أطولَ يا صديقي في ليل الشتاء ..!

اللحافُ لا يكفينا يا أبي ..

وهوَ الذي يضعُ أصبعهُ في فمهِ تارة ً ..

وتارة ً يضمَ ذراعيهِ إليهِ هذا الصديق ..

رائحةُ شعرهِ صادقة ..

فـ هيَ تخبركَ بـ الضبطِ كيفَ عانى طويلاً ..!

وإغفاءتهُ العميقة ؛ لم تكن تدعُ مجالاً لـ نشكَ :

في أنَ التعبَ يبحثُ عن الأطفالِ في كلَ المنازل ..!

اللحافُ لا يكفينا ..

والكوبُ الدافئُ لم يعُد دافئاً ..

فـ الحراكُ يُوقظُ صديقي ..

وانتظرتُ حتى نامَ تماماً ..

وشربت ما بـ الكوبِ بارداً كـ يدِ عجوز ..!

الرياحُ تشتدَ هذا المساء ..

وصريرُ النوافذِ العاليةِ لا يهدأ ..

نحنُ وحيدانِ في مينمٍ كبير ..

مينمَ يبتلعُ أحلامنا ..

يُخبـؤنا داخله ..

يحبسنا فيه ..

يمضغُ أصواتنا ..

ويُوقدُ الأمنيةَ بـ حطب الإحباط :

أينَ أنتَ يا أبي ..؟

لا زالت الأمكنةُ تحملُ ذاتَ الصوت ..

إلا أنَ شكلها يتغير ..

الشارعُ الضيقُ يُفضي إلى مائدةِ الحيِّ ..

- هكذا كنا نسمي النافورة الكبيرة أنا وصديقي -

مائدةُ الحيِّ منسعةٌ جداً ..

فـ هيَ تكفي لـ أنْ يسبحَ بها الفأرُ الجائع ..

رغمَ حجمهِ الهائل ..

وتكفي لـ أنْ يشربَ منها الحصانُ العنيد ..

لكنها لا تكفي لـ يكبرَ أصبعي الأخضر ..!

مائدةُ الحيِّ يومياً تلملمُ ما في جيوبِ المارّة ..

طلبها مُجاب ..

فـ ما إنْ تمدَ لسانَ مائها ؛ حتى يُصفي لها الجميع ..

ويُشيرونَ إليها ..

بعدَ فترةٍ ليست قصيرة ..

أحدهم كسرَ فمَ المائدة ..

صارَ لسانها يخرجُ بـ شكلٍ عشوائيٍ ..

أصبحتْ كلماتها تطولُ المارّةَ والمتجولين ..

- أغلقوها -

هذا ما هتفَ بهِ أحدهم ..

لكنها حزنتْ كثيراً ..

وأخذتْ تلملمُ لسانها الطويل ..

حتى إختفى ..

المائدة ُ منسعة ً كثيراً ..

لكنها خالية ً مما يجعلها على قيدِ الحياة ..!

(50)

كم أشعرُ بـ الألم الآن ..

الطرقاتُ فارغة ً تماماً هذا الفجر ..

الفجرُ الذي خرجتُ فيهِ وحيداً من المينم ِ على غير العادة ..

حملتُ معي أصبعي الميتُ جراءَ قتال الفأر ..

ورحتُ أجوبُ المدينة َ الهامدة ..

الليلُ مُتعَبٌ جداً ..

لـ ذلكَ قررَ إنزالَ سترتهِ من كتفيه ..

فـ أرى صدرهُ الأبيض ..!

أشعرُ بـ ألم ٍ كـ قبضةِ أحدهم داخلَ الحنجرة ..

وغصة ً في القلبِ كـ من يلمسَ بـ أنملهِ داخلي ..!

الطرقاتُ فارغة ً تماماً ..

إلا من صديقي الذي لحقَ بي كثيراً ..

حتى تعبت قدماهُ ونامَ قربَ مائدةِ الحيَ ..

فـ حملتهُ إلى المينم ..

يا صديقي الهادئ :

أمكَ لم تحملكَ بـ يديها ..

وأبوكَ لم يفعل ..

فـ إعذرني إن تجرأتُ على ذلكْ ..!

(51)

لم أقترب من الموقدِ كثيراً ..

بضعُ خطواتٍ تفصلني عن الإحتراق ..

النارُ لا تتحدثُ إلا بـ ألغازٍ غير مفهومة ..

الحطبُ لا يُعذب في النار ..

الحطبُ لا ينطفئُ سُدى ..

الرمادُ الذي يُخلفهُ يُصبحُ مهرجاناً في اليوم التالي ..

أخذتُ أنا وصديقي بعضاً منهُ ورسمنا على وجوهنا :

شاربَ قطٍ ؛ وقرنَ على أنفٍ صغير ..

لم نكن نتناطحُ بـ الطبع ..

لكننا إختبأنا كلَ في مكانٍ ينسعُ له ..

خرجَ صديقي بعدَ فترةٍ يبحثُ عني ..

وأنا أختبئُ في حاويةِ تفاحٍ خشبية ..

كانت أسطوانيةً منتفخةً من المنتصف ..

ورائحةُ التفاحِ تملؤها ..

آهِ يا امرأةً اعتنت بي في غياب المشرفة ..

صوتكِ الآنَ يضمُ اختفائي ..

ودفئكِ يلمني من أطرافِ الأرض ..

كانَ صديقي قصيراً لا يستطيعُ النظرَ داخلَ الحاوية ..

فـ فضلتُ المكوثَ قليلاً أيضاً حتى مضى ..

وبـ التالي بكيت ..!

(52)

في اليوم الأول من المدرسةِ حضرتُ متأخراً ..

أمسكني المدرّسُ من يدي اليُمنى ..

وسارَ إلى المدير ..

فوجئتُ بـ السيدِ " زيس " جالساً خلفَ مكتبٍ كبير ..

مكتبَ كـ مائدةِ الحيَ إلا أنهُ طويل ..!

وخفضتُ رأسي أسفلَ المكتب ..

أبحثُ عن لسانٍ لـ هذا الشيء ..!

زيسُ الثريَ جداً ابتسمَ لي قائلاً :

لم أركَ في نافذةِ العليةِ منذ زمن ..؟

وهنا ركضتُ خلفَ المدرّس واختبأت :

أنا لم أركَ من نافذةِ العليةِ منذ أن اشتريتَ المنزل ..؟

ابتسمَ زيس ؛ وقدّمَ طبقاً مليئاً بـ الحلوى ..

لم آخذ قطعةً منه ..

انتظرتهُ أن يُخبرني عن اسم الحلوى كـ صديقي القديم ..

صرختُ :

أريدُ فراولة ..

قهقهَ زيس ..

وكدتُ أُخرجُ أصبعي الأخضرُ لـ أطعنه ..

لكنني لم ألحظ فرواً على جسده ..

أخبرني الثريَ العجوز أنني أعجبه ..

لـ ذلكَ قرّرَ أن يُهديني ثوباً جديداً ..

وحقيبةً جديدة ..

آآه يا زيس ..

أريدُ صديقي القديم ..

وذكرياتي القديمة ..

أريدُ المرأةَ التي اعتنت بي في غيابِ المشرفة ..!

(53)

وأريدُ أن أحزن ..

كـ ما يحزنُ الأطفالُ عادةً على أيَ شيء ..

أريدُ أن يختفي شقَ شفتي العلويةِ في السفلية ..

وأن أنظرَ بـ رأسٍ منخفضٍ إلى الأعلى ..

أريدُ أن أبكي ..

فـ البكاءُ حقَ مشروعٌ لي كـ طفلٍ ناضجٍ لـ سببٍ ساذج ..!

وأريدُ أن " أريد " ..

لا حقَ لي في هذا المينم الباهت ..

الأشياءُ العاليةُ عاليةً هكذا ..

دونَ سببٍ واضح ..

والأشياءُ السفليةُ سفلية ..

وأنا " أنا " ..

وصديقي هوَ أيضاً طفلٌ مثلي تماماً ..

لا أريد حلماً أحلمُ به ..

أريدُ حلماً يتحقق ..

هكذا تمتدَ إليهِ أصابعي حتى نلمسهُ ونـُثلج ..!

أريدُ أن أحزن ..

فـ الحزنُ مشروعٌ في هذا العالم ..

والفرحُ إن جاءَ فـ لا بأس ..

أما الحزنُ فـ هذا حقي الأولُ في تركةِ أبي ..

ووفاةُ أمي ..

وذلَ المشرفة ..!

(54)

في المدرسةِ تعرفتُ على صديقٍ جديد ..

لم يكن حميماً كـ ما أردت ..

لكنهُ صادقٌ على الأقل ..

في الاستراحةِ الأولى لـ ثالثِ درسٍ أخذناه :

ذهبتُ معهُ لـ نتسلقَ شجرةً في الفناء ..

أنا صديقُ الأشجار وهوَ لا ..

لـ ذلكَ وقعَ وجُرحتْ ساقهُ بـ بشاعة ..

حملني المدرّسُ مرةً أخرى إلى زيس ..

والذي قدّمَ لي طبقاً مليئاً بـ الحلوى ..

وأنا أنظرُ تحت المكتبِ إلى لسانٍ رأيتهُ أخيراً ..

أخبرني زيس الدافئ أنهُ لا يريدُ مني تسلقَ الشجرة ..

وإن فعلتُ ذلكَ سـ يقومُ بـ توبيخي ..

لا أكترثُ لـ توبيخِ زيس / المشرفة / طفلها / الفأرُ الجائع ..

لا أكترثُ لـ توبيخِ أحد ..

أنا رجل ؛ أقلهُ هذا ما اعتقدته ..

وحينَ تطورت الأمور من تسلقِ شجرةٍ ..

إلى قفزٍ بينَ الأشجار ..

أوقفني زيس يوماً كاملاً على قدمٍ واحدة ..

لـ ذلكَ عدتُ إلى الميتم بـ القدمِ الأخرى ..!

هنالكَ قابلتُ الشجرةَ العجوز ..

والتي كانت غاضبةً مني كثيراً ..

أخبرتني أنَ أبناءها غاضبون ..

وأنني آذيتهم عندما كانوا يرعونَ الصبيةَ في المدرسة ..

اعتذرتُ لـ الشجرةِ الأمَ ..

وانحنيتُ لها ..

ووقفتُ على قدمٍ واحدةٍ ويدينِ في الهواء ..

وتمايلتُ تمايلتُ تمايلت ..

حتى سقطت مني تفاحة ..!

(55)
الذي يفيضُ مني خارجاً ..

ليسَ بـ الضرورةِ أحمرُ اللون ..!

(56)
وأنا متعبٌ يا أمي ..

مجهدٌ كثيراً من وطأةِ الأيام ..

وقلقٌ عما سـ يؤولُ إليهِ مصيري ..

أريدُ أن أبكي ..

كي أتنفسَ أكثر ..

فـ الغصةُ تملأ قلبي إلى فمهِ النازف ..

وحلقي جافٌ كـ صحراء خامدةٍ في الداخل ..!

أنا متعبٌ يا أمي ..

أنظرُ إليَ بـ وجهٍ لا أعرفهُ في المرآة ..

وأنا بـ خير ..

بـ خيرٍ إلا من ذاكرة ..

الأشياءُ البسيطةُ يا أمي باتت أصعب ..

والصعبةُ انقضى زمنها منذ أمدٍ ليسَ بـ بعيد ..

ولم أخبركـ يا أمي عن ألمي ..

وعن الليل الذي لا أنامُ بهِ دونَ أن أتذكر ..

قدري أن أمتلكَ ذاكرةً لا تـُمحى ..

وقلباً يئنَ كـ مُقعَدٍ نماماً ..

أمي ؛ يا وجهَ السماءِ في شكلها الأول ..

يا صوتَ المرأةِ الأولى لديَ ..

المرأةُ الكاملة التي لا تنقصُ كلما أخذتُ منها ..

والتي لا تزيدُ كلما أثقلتُ عليها بـ همومي ..

أمي ؛ من أيَ ترابٍ يأتيني الوجع ..

أيَ طينيٍ أنا أو أيَ مائيَ ..؟

وحلقي جافَ كـ جرادةٍ مينة ..

متحطبَ كـ شجرةٍ سقطتْ منذ ألفِ عام ..

أخافُ أن أشربَ ماءً فـ تخضرَ ..

وأنا لا أشعرُ بـ الهدوء ..

ولا أشعرُ بـ الطمأنينة ..

أريدُ أن أنام ..

ولو في ثلاجةِ موتىً باردة ..

أريدُ أن أغفو بـ لا ذاكرة ..

بـ لا وجعٍ بـ لا ألمٍ بـ جفاف ..

أريدُ أن ينبخرَ حزني من جلدي لـ تنخفضَ حرارتي ..

أن ينبضَ قلبي دونَ إحباط ..

رأسي ممتلئٌ بـ حكايا اليتامى والمشردين ..

بـ قاطعي طريقٍ مظلم ..

ممتلئٌ بـ كلَ خطأٍ تشجبهُ الإنسانية ..

أنا أتألمُ يا أمي ولا يظهرُ ذلكَ في عيني ..

ولا أستفرغُ شيئاً منهُ على طاولةِ حديثنا ..

أخشى أن أضمكِ فـ تلمسي هذا الخوف داخلي ..

أخشى أن أضمكِ فـ تُفجعي بـ مقدار التعب ..

أن أكونَ ثقيلاً بينَ يديكِ كـ صخرةِ كِلس ..

أنا مجهدٌ ومرهقٌ ومنهكٌ ..

وصوتكِ الذي يتخللُ أوردتي فـ يمشطها من الحزن ..

ويستوطنُ داخلي ليلاً كاملاً كـ جنديٍ نبيل ..!

أخشى عليكِ مني ؛ ومنكِ عليَ ..

أخشى على كلينا منا ..!

ماذا حلَ بي ..؟

(57)
أوردتي صدأةٌ بـ حزنٍ قديم ..!

(58)
يقولونَ أني بـ خير ..!

كنتُ على غمامةٍ بيضاء ..

لكنَ الوريدَ الخارجَ مني :

يمتدَ طويلاً إلى قلبٍ يَقـْطرُ تلقائياً ..!

ولـ أني لستُ نائماً أو في حالةِ إفاقة ..

فـ قد كنتُ أسمعُ أصواتهم من بعيد ..

رغمَ قربِ المسافةِ بيني وبينهم ..

كـ أنْ تشعرَ بـ ألمِ أحدهم وهوَ بعيدٌ عنكَ ..!

الوريدُ يهتز ..

طرفهُ دقيقٌ جداً كـ مسألةٍ شائكة ..

وطرفهُ الآخرُ ينتفخُ كـ بالونِ العيد ..

أنا ملقىً لـ تأكلَ مني الأرض ..

وتـُنبتني السماءُ على مهل ..!

قالوا أني بـ خير ..

رغمَ ذلكَ لم أشعرْ بـ ما قالوا ..

ولم أشعرْ بـ سوئي أيضاً ..

حالتي تسمحُ بـ شيءٍ واحدٍ فقط :

النسيان ..!

وفي النسيانِ ما يجعلكَ قادراً على التركيز ..

كـ أنْ تنسى جلوسكَ بينَ أربعةِ أشخاص ..

وتركزَ على شخصٍ خامسٍ ليسَ معكم :

تـُرى كيفَ هوَ الآن ..؟

النسيانُ أولُ حاسةٍ لا نــُلمسُ بــ اليد ..

يليها الخوفُ والشكَ والفرح ..

الحزنُ ينجسدُ دمعاً ..

الفرحُ يحبسُ أنفاسكَ ..

أما الخوفُ فــ لا ..

الخوفُ ما بينَ هذينِ الإثنين ..

فــ هوَ ينجسدُ كــ رعشة ..

ويُحبسُ فيكَ كاملاً إلا وجهكَ ..

لــ ذلكَ نبدو شاحباً لــ من يراكَ ..!

(59)
ماذا أفعلُ هنا ..؟

حينما فقدتُ كلما كسبتُ من ضوء ..!

الثلاثاءُ كانَ ثقيلاً جداً ..

والصباحُ الذي إبتدأ بــ لعنةٍ لم يزل حتى الآن ..

رغمَ رحيلهِ المفاجئ ..

أنا لا أدركُ كم منَ الأحلامِ تمنيت ..

لكني رغبتُ بــ حلمٍ واحدٍ يتحقق ..

ألمسهُ فــ نــُثلجُ يدي ..

لكنها تهشمت تماماً عن بكرةِ الساعد ..!

(60)
[خروجٌ عن النصَ مقصود]

أنا الآنَ أصغرُ من ذي قبل ..

وأكبرُ من المعناد ..

لا ألوي على شيء ..

الصمتُ الذي مارسنهُ منذ البارحةِ إستوطنَ بي ..

وأخي ؛ والذي يكبرني بـ عامين ..

أحضرَ كوبَ قهوتي كـ المعناد ..

لكنهُ فارغ ..!

أحياناً ؛ وحينَ تجبركَ العاداتُ على فعلها ..

لا بدَ أن تمثلها بـ مهارة ..

كـ أنْ تحملَ كأسكَ في الثامنةِ والنصفِ مساءً ..

وأن تدخنَ سيجارتين ِ أيضاً ..

لكن ؛ لا بدَ أن تمثلَ جيداً أنكَ تفعلُ كلَ هذا ..

ولو كانَ كوبكَ فارغاً ..

أو أنكَ لا تفتحُ شفتيكَ لـ سيجارةٍ فـ تدخن ..

بعدَ فترةٍ سـ تضطرُ إلى أداءِ دوركَ في تمثيل أنكَ حيَ ..

فـ تفيقُ صباحاً ..

وتضعُ يديكَ على وجهكَ وتفركهُ جيداً ..

وتسيرُ إلى الثلاجةِ وتشربُ كوبي حليب ..

ربما ؛ وبعدَ أيام قليلة ..

لا تضطرُ إلى تمثيل ِ شيء ..

ذلكَ لـ أنكَ إقتنعتَ بـ أنكَ مشلولُ تماماً ..

وهذا يجعلكَ دوركَ سهلُ جداً ..

كلَ ما عليكَ هو أن تجلسَ وحيداً في غرفةٍ مظلمة ..!

(61)

في الصيفِ كانَ النهارُ طويلاً ..

وكانَ المينمُ حاراً كـ فرنِ الخباز ..

الأمرُ الذي يضطرني إلى قراءةِ كلَ شيء ..

لوحاتُ الإرشادِ المنهالكةِ في الممرات ..

كتاباتُ الصبيةِ الذينَ كانوا هنا من قبل ..

ماركاتُ أطباق الطعام الصدئة ..

والتي لا يأكلُ بها سواي وصديقي الجديد ..

وكـ ذلكَ طعامُ الكلبِ العجوز ..

نسيتُ أن أخبركم عن الكلب العجوز ..

عندما كانَ جروا - كـ ما تقول المشرفة - ذاتَ يوم ..

عضَ الكلبُ ساقها من أسفله ..

في محاولةٍ فاشلةٍ أن يلفتَ انتباهها إلى أنهُ كلبُ حراسة ..

والغريبُ أنهُ كلبُ صيدٍ قد تمَ تجاهل قدراته ..

وعدمُ تدريبهِ وإطعامهُ بـ شكلٍ جعلهُ فريسةً لا صائداً ..!

حينما حكتْ لي المشرفةُ ذلكَ ..

نزلتُ أسفلَ الطاولةِ ونظرتُ إلى كعبها ..

لم أرَ آثاراً لـ أسنانِ جروٍ صغير ..

فـ فكرتُ :

إن عضَضْتُـها أنا الآخرُ فـ ماذا سـ يحدث ..؟

وتذكرتُ بـ أنهُ يتوجبُ عليَ النومُ على أربعةِ أطرافٍ خارجَ المينم ..

وأنْ أنشبتَ بـ عظمةٍ خلالَ النهار ..

والأهمَ ؛ هوَ أن أنبحَ بـ صوتٍ يُزعجُ الجيران ..

فـ يرمي أحدهم بـ كوبِ نحاسٍ على أمِ رأسي ..

لا ؛ لا أريدُ أن أقلدَ كلباً وأمرَ بـ كلَ هذا ..

الأطفالُ يقلدونَ أشياءَ كثيرة ..

لمَ لا أقلدُ البجعَ مثلاً ..

فـ هذا سهلٌ على صغيرٍ مثلي ..

ما ينقصني هوَ رقبةٌ طويلةٌ ربما ..

حينَ فقتُ من كلَ هذهِ الأفكار ..

سألتني المشرفة :

هلْ رأيتَ آثاراً ما ..؟

فـ قلتُ : لا ..!

حينها ضحكتْ كثيراً ؛ وقالت :

كنتُ قويةٌ وشابةٌ آنذاك ..

وعضةٌ بسيطةٌ لم تؤثر بي ..

امتعضتُ كثيراً لـ أنها دائماً ما تفخرُ بـ نفسها ..

رغمَ كونها أشبهُ بـ جرس الكنيسةِ القديم ..

فـ فمها والذي ابتلعني في حلمٍ سابق ..

كانَ كبيراً جداً ..

كبيرٌ لـ درجةِ أنهُ يحتاجُ دلوَ ماءٍ كاملٍ لـ تغسله ..!

(62)

الصيفُ هذا حارٌ جداً ..

والقراءةُ مستحيلةٌ معَ أوامر المشرفةِ المتواصلة ..

ذاتَ مرةٍ أحضرتْ لي قصصَ أطفالٍ قديمة ..

كانَ الكتابُ عريضاً لكنهُ صغيرٌ جداً ..

صفحاتهُ كثيراً ..

كـ أنها بـ ذلكَ تعاقبني بـ كثرةِ القراءة ..

لا يهمَ ..

ما يهمَني أنني وحينَ بدأتُ أقرأ ..

حدثتْ أمورٌ كثيرة ..

كـ أن يُصبحَ المكانُ مظلماً فجأةً ..

وأنفاجأ بـ شخصياتِ القصصِ تخرجُ منه ..

وتلتفَ حولي بـ لطفٍ :

أنتَ حررتنا ..!

كنتُ سعيداً جداً حينها ..

فـ قد حسبتُ أنَ المشرفةَ من حبستهم في الداخل ..!

منذ ذلكَ الوقت ..

صارَ لديَ أصدقاءُ جُدُدْ ..

وكانَ أحدهم بـ قرنٍ طويلٍ جداً ..

أظنهُ حصانُ الأميرِ زوريس ..!

وافتقدتُ الشمس ..

فـ هيَ من بينِ أصدقائي الذينَ أضعتهم ..

الشمسُ والليلُ وصديقي الراحل ..

فجأةً ؛ ودونَ سابقِ إنذار ..

قفزَ أرنبُ زهريَ اللونُ في حِضني ..

وبدأ يُنمنمُ بنت نعاويةَ وأمورَ أخرى لا أفهمها ..

وانتفضتُ ؛ انتفضتُ كثيراً ..

حتى تمددتُ ضِعفَـيْ حجمي ..!

وقالَ :

الآنَ خذ بـ ثأركَ من المشرفة ..!

فـ قلتُ : أيَ ثأر ..؟

قالَ :

رأينكَ تصارعُ الفأرَ في القبو ..

وجميعنا مُعجبونَ بـ شجاعتك ..!

قلتُ ثأرتُ من الفأر ..؟

لكنَ الشجرةَ العجوزُ قد قتلته ..!

قالَ وأنتَ سهلتَ مهمتها حينَ طعنتهُ بـ أصبعكَ الأخضر ..!

الآنَ فهمتُ ؛ شخصياتُ القصصِ ترانا دائماً ..

لـ ذلكَ وإن كبرُنا لا زلنا نلبسُ زيَ بابا نويل ..

أو نرتدي أزياءَ الأقزام السبعة ..

لا زالت القصصُ تنظرُ من خلالنا وإن كبرُنا ..

قلتُ :

وإن لم أشأ الثأرَ منها ..؟

قالَ :

عُد كـ ما كنتْ ..!

وتقلصَ حجمي ؛ لكن دونَ ألمٍ يُذكر ..

بدأتُ في اللعبِ معهم وأنا أفكرُ في هذا الأرنب ..

وسألتهُ دونَ تردُد :

لـ ماذا لا تجعلُ نفسكَ كلبَ صيدٍ ؛ أو ذئباً مثلاً ؛ أو حتى أبي ..؟

قالَ :

أبوكَ ..؟

قلتُ :

نعمْ أبي ؛ فـ هوَ قويَ جداً ..

حينها طارتْ سلحفةٌ عجوزٌ حولَ رأسي ..

ثمَ توقفتْ عندَ أنفي تماماً ..

وركزتْ بـ عينيها في عينيَ ..

وطارتْ مرةً أخرى ..!

قلتُ :

أبي ..!

وعادتْ لـ تطيرَ مرةً أخرى حولَ رأسي ..

وفعلتْ ما فعلتْ سابقاً ؛ ثمَ طارتْ بعيداً ..

والآنَ فهمتُ أيضاً :

أبي ليسَ رجلاً قوياً فـ حسبْ ..

لكنهُ إسمٌ جديدٌ لـ سلحفة ..!

(63)

يومُ الأحدِ عطلة ..

هذا ما أعرفهُ منذ صِغري ..

أما الذي لا أعرفهُ أبداً ..

هوَ كيفَ أقضي عطلتي يومَ الأحد ..!

(64)

مرةً أخرى يُعاقـَبُ صديقي الجديد ..

لـ أنهُ قامَ متأخراً لـ وقتٍ يكفي لـ صنعِ كعكة ..

المشرفة ُ كـ ميزانِ ماءٍ دقيق ..

لا تتأخرُ لو لـ مرةٍ واحدةٍ في أيَ شيء ..

ضربتهُ كثيراً ..

ووبَختني لـ أني رمقتها بـ عيني صبيٍ حانق ..!

صديقي الآنَ لا يُحرِكُ ذراعهُ الأيسر ..

ولا يستطيعُ الركضَ وإلا وقع ..

وأنا أملكُ قميصاً واسعاً عليَ ..

لـ ذلكَ ارتديتهُ معَ صديقي في آنٍ واحد ..

ومشينا في الردهاتِ سعيدَينِ جداً ..

الكلبُ العجوزُ رمقنا بـ نظراتٍ ساخرة ..

وعادَ لـ يأخذَ حصتهُ من النوم ..

في هذهِ الأثناءِ تكلمَ صديقي لـ المرةِ الأولى هذا اليوم :

متى يأخذُ هذا الكلبُ حصتهُ من الصحو ..؟

ضحكتُ كثيراً ؛ وربَتُ على رأسهِ الصغير ..

إنهُ ودودَ ومرح ..

هذا ما يُعجبني في صديقي الجديد ..

وحدثَ ما لم يكُن في الحسبان ..

فـ المرأة ُ التي أحضرتْ صديقي قد أقبلت ..

ودونَ أن تنطقَ بـ كلمةٍ خلعت عنـَـا القميص الواسع ..

وأمسكتْ بـ ذراعِ صديقي التي لا تتحرك ..

وقالتْ :

من فعلَ بكَ هذا ..؟

نظرَ إليَ كـ من لا يُريدُ إخبارها ..

فـ وجّهتْ سؤالها إليَ :

من فعلَ بهِ هذا ..؟

قلتُ :

سقطَ من سورِ المتيمِ الخلفيَ حينما كنا نلعب ..

هدأتْ المرأةُ وأعطتنا قطعتينِ من النقود ..

فـ ارتدينا قميصنا مرةً أخرى ..

وركضنا إلى المتجر القريب ..

لـ نشتري حلوى ..

لكننا تفاجأنا بـ المشرفةِ هناكَ ..

والتي رأتْ النقودَ بـ يدي ..!

سألتنا :

منْ أينَ لكم ..؟

فـ نظرَ صديقي إليَ كـ من لا يريدُ إخبارها ..

فـ تأوّهتُ داخلي [ليسَ مجدداً يا صديقي] ..!

وقلتُ :

سرقناها من تلكَ المرأةِ التي تجلسُ وحيدةً هناكَ ..

حملتنا المشرفةُ بـ يدينِ دفعةً واحدة ..

وكانتْ تتوعّدُنا كثيراً أثناءَ سيرها ..

حينَ وصلتْ إلى المرأةِ رمتنا أرضاً ..

وقالتْ :

اعتذروا ؛ والآن ..!

أزالتِ المرأةُ قبعتها الكبيرة ..

فـ صُعقتِ المشرفة ..

وسألتها :

كيفَ تفعلينَ هذا بـ صبية ..؟

أنا أعطيتهم النقود ..

حينها ركضنا أنا وصديقي إلى الميتم ..

تغمرني السعادة :

لقد أوقعتُ بـ المشرفةِ البغيضة ..

لا يهمَ ماذا سـ تفعلُ بي ..

الأهمَ أنني أوقعتُ بها ..!

(65)
أربعةُ أيامٍ والقبوُ ضيّق ..

مساحةُ حركتي لا تتعدى خمساً وعشرينَ حلقةً من سلسلة ..

ضئيلةً حينَ أريدُ قضاءَ حاجتي ..!

(66)
الشمسُ أشرقتْ ..

لـ أولِ مرةٍ نـُشرقُ الشمسُ منذ أيام ..!

كانَ الليلُ المتكررُ صامتاً ..

والضوءُ يأتي من شرفةٍ أسفلَ الباب ..

أظنها مدخلاً لـ كلبٍ عجوزٍ فيما سبق ..

لم أعُد أسمعُ العصافيرَ أو الديكَ ..

كلَ هذا الصمتِ يصمُ أذنيَ ..

تعودتُ عليهِ تدريجياً ..

حتى أدركتُ أنَ غنائي مزعج ..

وأنَ صوتي الحادَ كـ طفلٍ في الحاديةِ عشرةَ من عمرهِ :

أبشعُ من صوتِ سلسلةٍ تـُسحَبُ على الأرض ..!

لم أرى المشرفةَ طويلاً ..

ولم أسمعْ عن صديقي الجديد أيَ شيء ..

أظنهُ أصبحَ طعاماً لـ طفلِ المشرفة ..!

الشمسُ أشرقت هذا اليوم ..

والضوءُ يضربُ عينيَ بـ قوة ..

يُريدُ اختراقها بـ سرعةِ [الضوء] ..!

لا أستطيعُ قراءةَ تعابيرِ الأشياءِ التي أمامي ..

هذا الصندوقُ بدا لـ الوهلةِ الأولى كبيراً ..

وبـ حوافَ متعرجة ..

لكني رأيتُ من خلالِ كلَ هذا :

يداً تمتدَ نحوي ..

تحملني أو تسحبني إلى الأعلى ..

حينَ خرجتُ من القبو ..

وبدأت الأشياءُ تدخلُ إلى رأسي :

ضوءَ / مسارَ طويلَ / أبوابُ كثيرة / نافذتينِ فقط / مشرفة ..

حينَ بدأتْ تدخلُ إلى رأسي سقطتُ سريعاً ..

لم أحتملْ كلَ هذا دفعةً واحدة ..

الأمرُ الذي اضطرني لـ الدفاعِ عن نفسي بـ غيبوبة ..!

(67)
سـ ننتقلُ من هنا ..

أو سـ أنتقلُ وحيداً إلى ميتمٍ آخر ..

المشرفةُ بانت تكرهني ..

وأصبحتْ غريبةً أيضاً ..

لـ أولِ مرةٍ تضعُ المشرفةُ مسحوقَ تجميل ..

وضعتهُ بعدَ أن قابلت المرأةَ التي أحضرت صديقي الجديد ..

وبعدَ أن سمعنا صوتاً عالياً كـ سقوط ..

أو صوتاً عالياً كـ حادثِ سير ..!

ما أتذكرهُ أنني كنتُ أراها حالما نزلتُ إلى القبو معها :

وقد بدتْ أنها تضعُ حبراً في خدها الأيسر ..

وقلتُ :

المشرفةُ تلعبُ بـ الحبر كـ ما يلعبُ صبيةُ المدرسة إذن ..!

حملتُ حقيبتي ؛ وكانت ثقيلةً جداً ..

يبدو أنَ المشرفةَ رتبت ذكرياتها معي في الحقيبة ..

ولم تتركْ أثراً لي في المكان ..!

وحينما صعدتُ إلى العربة ..

كدتُ أدافعُ عن نفسي مرةً أخرى ..

لكنني تناسيتُ الفكرة ..

وقلتُ :

سـ أدعُ الأشياءَ تدخلُ إلى رأسي مرةً أخيرة ..

العربةُ التي صعدتها تحملُ نافذتين ..

أحدهما مغلقٌ بـ إعلانٍ لـ تأجير العربة ..

والأخرى كافيةٌ لـ أخرجَ جسدي إلى النصف ..

في الطريقِ لوّحتُ لـ بائعِ الخضار الذي أهداني أصبعاً ..

وانحنيتُ لـ مائدةِ الحيّ ..

التي أخرجتْ لساناً طويلاً لـ مرةٍ واحدةٍ كي تهزأ بـ رحيلي ..

ورأيتُ المينا أيضاً ..

وخشيتُ أنهُ يجرّ المدينةَ خلفهُ كـ حمار ..!

حتى وصلنا إلى أعلى المدينة ..

حينها التفتُّ بـ دهشة ..

ورأيتُ امرأةً تمسحُ ذراعَ أحدهم بـ منديلٍ مبلول ..!

ذلكَ الوقت ؛ تخيلتُ نفسي أقفزُ من العربة ..

وأتدحرجُ في الهواءِ طويلاً ..

حتى أصبحَ نملةً تخرجُ من جرحِ أحدهم الصغير ..!

(68)

أصبحَ الأمرُ مأساوياً ..

بعدَ ساعتينِ من المسير تقريباً ..

أصبحتْ معالمُ الأشياءِ حولنا متشابهةً إلى حدٍ بعيد ..

كنتُ أسألُ نفسي دائماً حينها :

لـ ماذا يتكررُ الجبلُ أكثرَ من مرة ..؟

أو لـ ماذا تلتحفُ الأرضُ بـ غطاءٍ أصفر ..؟

فـ الوقتُ ليسَ شتاءً كـ ما أعلم ..

الذي يُربكني في هذا كله :

تدحرجُ العربةِ في الهواءِ بينَ الحين والآخر ..

ولـ أنني صغيرُ البنية ..

فـ قد كانت حقيبتي أكثر اتزاناً مني ..

في هذهِ الأثناءِ عزمتُ على الذهابِ أماماً ..

بـ جوارِ السائق الذي يغني ..

ابتسمَ حينَ رآني ..

واخرجَ من جيبهِ قطعةَ حلوى ..

وقالَ :

لا تأكلها مرةً واحدة ..

فقط دعها تذوبُ في فمك ..

وسـ تنسى أنكَ في طريقكَ إلى مكانٍ آخر ..

ثمَ لفَ ذراعهُ حولي وضمَني بـ قوةٍ إليه ..

لم أشعر في عمري بـ مثل هذا ..

فـ الهواءُ الذي يسيرُ على وجنتي بـ عشوائيةٍ أصبحَ مرتباً ..

أصبحَ ناعماً كـ امرأةٍ عجوزٍ تدهنُ قطعةَ خبزٍ لـ ابنها ..!

لم أشأ بـ الطبع أن يتركني السائقُ بعدَ هذا ..

فـ قد طوقنهُ بـ ذراعيَ ..

وحاولتُ إمساكَ إحدى يديَ بـ الأخرى ..

لكنني عجزتُ عن ذلك ..

وتأوهتُ داخلي ؛ وقلتُ :

السائقُ الآنَ لهُ طعمُ [صمتْ] ..!

واستسلمتُ لـ فكرةِ الحلوى الذائبة ..

وحينَ بدأتْ الشمسُ تغرب ..

أذهلني ما رأيت ..

فـ قد أخرجَ السائقَ زجاجةً من خلفه ..

وأشعلَ الشمس ..!

(69)

صحوتُ على ارتطامِ رأسي بـ الأرض ..!

في العادةِ لا أتحركُ أثناءَ النوم ..

لكني أحلمُ بـ الأشياءِ التي تحدثُ كثيراً ..

وأكثرُ الأشياءِ حدوثاً بـ استمرار ليلةَ البارحةِ :

كانَ تدحرجُ العربةِ في الهواء ..

لـ ذلكَ حلمتُ بـ أني أطير ..

وأرى الأشياءَ من الأعلى ..

ثمَ أهبطُ لـ يرتطمَ رأسي بـ الأرض ..!

السائقُ ينامُ على حصيرٍ قديم ..

والحشراتُ تسيرُ جانبهُ في العراء ..

كـ أنهُ عاهدهم على ألا يقربهم فـ لا يقربوه ..!

أعجبني شكلُ أحدها ؛ رغمَ أنها لا تتحرك ..

يبدو أنها قضت عمراً هنا وقضتْ ..

كانتْ دائرية ً كـ كعكةِ العيد ..

حاولتُ أن أقسمها نصفين ِ فـ عجزت ..

ورحتُ أسمعُ داخلها ..

كانت تئنَ كـ البحر ِ تماماً ..

لم أكن أعرفُ ما هوَ البحر ..

لكني سمعتُ منذ زمن ٍ عنه ..

وصفهُ لي أحدهم فـ قال :

البحرُ أكبرُ من الشمس ..!

ولم أصدق بـ الطبع ما قاله ..

لا شيءَ أكبرُ من الشمس ..

لا شيءَ أكبرُ من شيءٍ كانَ ينسعُ لهُ جيبي ..!

(71)

كانت مفاجأة ً جعلتني صامتاً كـ حقيبة ..!

الرجلُ الأبيضُ الذي كنتُ أسيرُ معهُ ذاتَ عيد ..

والذي تبنى صاحبي القديم ..

كانَ في إستقبالي ..!

هذا مينمَ يرغبُ بهِ كلَ الأطفال ..

أو على الأقلَ هذا ما حسبته ..!

الرجلُ الأبيضُ حملني من ذراعيَ كثيراً ..

وضحكَ كثيراً أيضاً ..

وحينَ أدركتُ الأمر ..

قفزتُ من بين يديهِ إلى الأرض ..

وركضتُ إلى صخرةٍ عاليةٍ قرب السور ..

وعلوتها صارخاً :

الفرحُ رجلٌ أبيض ..!

وصمتَ ُ كثيراً ..

حينَ فـُتِحتْ نافذة ٌ أعلى الميتم ..

وخرجُ منها رأسٌ صغيرٌ أعرفهُ تماماً ..!

قبل ٨ سنوات

- إنها امرأٌ جميلة ؛ من المحزن أن تتزوج برجلٍ لا تحبه رغم معرفة القرية كلها بحبهما . . .
- يقال أنّ الفقير الذي تحبه قد تمّ إرساله كي يعمل في البحر ؛ لقد أرسلوه على متن سفينةٍ متجهةٍ إلى الشرق منذ أيام . .
- أنا سمعتُ أنّ جاك الذي يعملُ والدها عنده قد وعد أباها بثروةٍ طائلةٍ إذا زوّجهُ ابنته ؛ وقد وافق الشيخ المسكين خوفاً من سطوةِ جاك ؛ وليس رغبةً في المال . .!

كان النساءُ يتهامسْن . . بينما تعبر فتاةٌ جميلةٌ بثيابها الباليةِ قربهنّ ؛ إنها ابنة الشيخ الفقير المشهور بـ «أبي الجميلة» لِما لابنتهِ من جمالٍ ليس لهُ نظيرٌ في المدينة ؛ عيناها واسعتان كقمرٍ يقترب من الأرض ؛ ذات شعرٍ يُضرب بهِ المثل . . إذ كان أهل المدينةِ يقولون أنها تغسلهُ بحليبٍ وعسلٍ كنايةً عن روعته وبريقه .

وكانت ابتسامتها تُجبر شقيقَين على شجارٍ طويلٍ كي يعترف أحدهما للآخر بأنها ابتسَمت لهُ لا لغيره . كانت الجميلة تعبرُ بانكسارٍ واضح ؛ لا انكسار جوعٍ أو حاجة ؛ إنهُ انكسار الراغبين في الموت حين لا يموتون ؛ لقد ظلّت أسبوعاً كاملاً لا تنطق بكلمةٍ ولا تنظر إلى لذة المأكل والمشرب اللتَين أغدق بهما جاك على أهلها ؛ كانت صغيرةً لتفرض رفضها وعاقلةً لتمتنع عن الرفض ؛ عالجت أولى مشاكلها الحقيقية بالصمت ؛ الصمت الذي ظنّت أمها أنّ إعاقةً ما أصابتها جرّاء إجبارها على الزواج من الثريّ جاك :

- ابنتي . . إنّ جاك ليس سيئاً ؛ أعلم بحبكِ لكن ليس باليد حيلة ؛ الوقتُ كفيلٌ كي تنسي كلّ هذا ؛ أطفالكِ قادرون على ملء وقتكِ وإشغالكِ عن هذه الحياة . . . على الأقلّ انظري إليّ ابنتي ؛ أنا وأبوكِ لا نستطيع التفريط بحياةٍ كاملة ؛ لا نستطيع أن نبدأ من الصفر في أيّ مكانٍ آخر ؛ لقد أخذ العمرُ منا ما أخذ ؛ ولم يتبقَّ فيه الكثير ونريد أن نحيا بسلامٍ بين الجميع ؛ ابنتي أرجوكِ . . ألا تكفي هذه الدموع التي أذرفها ليل نهارٍ شفقةً على قلبكِ . .؟ ماذا أفعل كي تنظري إليّ بعينيكِ الرائعتين كظلال الجنة . .؟ ماذا أفعل كي تضميني وتبثّي حزنكِ إلى قلبي . .؟ إنكِ تفطرين فؤادي . .!

بعد أيام قليلة..

كانت الحرب على وشك الاندلاع ؛ مقاطعةٌ تحاول أن تنشقّ عن بقية المقاطعات وتستقلّ بذاتها ؛ عائلةٌ ثريةٌ تخطط لهذا الاستقلال ؛ بمشورةِ امرأةٍ ثريةٍ جداً ؛ أبناؤها يشغلون مراكز حساسة في المقاطعة ؛ ومشهورون بتجارتهم ؛ يموّلون هذه المعارضة التي نشأت قبل سنتين ضدّ الحكم الحالي ؛ كانت المعارضة سريةً في بدايتها واقتصرت على عددٍ قليلٍ من رجال المقاطعة ؛ بيدَ أنها انتشرَت جرّاء انضمام الأثرياء إليها وترغيب أهل المقاطعة بأموالهم كي يطيعوهم .

كانت المرأة الثرية تسكنُ قرب مدرسةٍ شهيرةٍ في المقاطعة ؛ المدرسة التي تضمّ سكناً للطلاب الوافدين إليها من كل البلاد ؛ كان مبني المدرسة شهيراً بشكله الغريب . . مبنىً ذو غرفٍ أرضيةٍ متجاورة ومتقابلة يفصل بينها ممرّ طويلٌ يُفضي إلى صالةٍ واسعةٍ وموقدٍ ذهبيّ في المنتصف ؛ ما يميّزهُ هو القبو الكبير في الأسفل والذي تملأه عائلات الطلاب بالمؤونةِ التي تكفي

شتاءً كاملاً ونصف ربيع ؛ دون الحاجة إلى التزوّد بشيءٍ خلال هذه الفترة ؛ وللمبنى برجانِ مرتفعان عن بقية المنازل المجاورة ؛ لا أحد يعرف سرّهما ؛ يُقال أنّ المبنى كان ليكون مصنعاً لولا أنّ المرأة الثرية اشترته حفاظاً على هدوء الحيّ وتبرّعت بهِ ليصبح سكناً للطلاب البعيدين عن أهليهم ؛ ولذلك تمّ بناء برجين بدلاً عن مدخنتين ؛ ويُقال أنهُ سجنٌ قديمٌ اشترته المرأة الثرية من المقاطعةِ بعد أن كان مغلقاً لسنين ؛ ثمّ رممتهُ وجعلتهُ سكناً للطلاب ؛ لكنّ الأكيد هو ملكية الثرية لهذا المبنى ؛ والذي استُخدم في مرحلةٍ ما من الحرب مكاناً لاختباء جنود المقاطعة وتخزين السلاح ؛ وبرجاً لمراقبة منافذ المدينة الصغيرة .

اندلعت حربٌ لم تدم إلا أسابيع قليلة . . ذكاء امرأةٍ وأموال الأثرياء لا يعوّضان نقص الجنود المتطوّعين في جيش المدينة البدائي إضافةً إلى المنشقّين ؛ سرعان ما انتقلت الحربُ من قتالٍ على أبواب المدينةِ وصفحات الصحف اليومية ؛ إلى عصاباتٍ شوارع تغتال الجنود فجأةً وبعشوائية ؛ أصبحت الحربُ حربَ انتقامٍ للذات ؛ حين لا يستطيع مجتمعٌ ما هزيمة ضعفهِ الواضح والانتصار لمطالبه ؛ ينتصر لغضبه ؛ يبدأ في استغلال جميع الفرص التي كان يتجاهلها في السابق في سبيل التركيز على قضيةِ انتصاره الكبرى ؛ تصبح كلّ الفرص المتاحة أمامَه

فجأةً قضية انتصار ؛ يفعلُ الغضب والانكسار أكثر من ذلك ؛ هكذا بدأ المنشقون من أبناء المقاطعة في فعل كلّ شيء بغية عدم إراحة جنود الحاكم اللذين أحكموا سيطرتهم على المدينة وأنهوا محاولة انشقاقها ؛ لقد بذل الجميعُ مالاً طائلاً في سبيل تنفيذ مهمتهم هذه ؛ لكنهم انكسروا بالسرعة ذاتها التي اجتمعوا بها ؛ أُجبرت المرأةُ على الإقامة الجبرية وأبناؤها الثلاثة ؛ وأصبح فناء قصرهم هو متنزههم الوحيد . .!

الثَريّ (جاك)..

- لا بدّ من حيلةٍ كي أبعد هذا الصعلوك عن طريقي . . .
- بماذا تفكر يا جاك . .؟
- لا شيء يا لوك . . أريدُ إزاحة الفتى دون تشويه سمعتي بأمرٍ لا يستحقّ . .
- إنهُ يعمل عند صديقك غابرييل ؛ اطلب مساعدته
- كيف . .؟
- صديقك غابرييل يُدين لك بالكثير ؛ فقد أنقذته غير مرة من عدة مشاكل
- صدقت . . هذا الأجير يعمل لدى غابرييل ؛ من الممكن تدبير الأمر بطريقةٍ رائعة وعفوية . .!

في المقاطعة..

المقاطعةُ هادئة . . مرّت خمس أسابيع على آخر طلقةٍ سُمعت في الأنحاء بعد الحرب ؛ الحياةُ بدأت تأخذ شكلاً عادياً ؛ يُمارسُ الناسُ أعمالهم . . الباعةُ المتجولونَ وحاملو الأمتعةِ وسائقو العرباتِ والمحلات التي ترتصّ على طول الطريق الذي يشقّ المدينة . كلّ شيءٍ يسير برتابته المعتادة ؛ عدا عربة الطبيب المسرعة باتجاه قصر الثريّة الشهير .

يترجّل سائق العربة أمام بوابة القصر المجاور . . ويتحدث إلى الجنديّ الذي يحرس القصر ؛ يطّلع الحارس على أوراقه الثبوتية ويفتش العربة سريعاً ثمّ يسمح لهما بعبور البوابة .

أمرٌ دُبِّرَ بِلَيْل..

- غابرييل . . صديقي الرائع ؛ كيف حالك . .؟
- بخير أيها النبيل جاك ؛ كيف أشكر السماءَ على زيارتك!
- أوه يا صديقي لا تقل ذلك أبداً ؛ فأنا أشعر بالخجل لقلّة سؤالي عن أخبارك والاطمئنان عليك . . .
- أبداً . . أبداً ؛ لم يحدث هذا على الإطلاق فأنتَ دائماً ما تسبق الجميع في السؤال عنهم ؛ أجبني الآن . . كيف أشكر السماء على زيارتك . .؟
- ربما تطلب السماءُ خدمةً صغيرةً منك . . .

يقترب غابرييل من جاك ويهمس :

- أنا دائماً في خدمة سماوات الأصدقاء . . . وينفجران ضَحِكاً
- أنتَ تعلم أنني أنوي الزواجَ ؛ بيد أنّ مشكلةً صغيرةً ربما تسبب صداعاً لا مبرر له إذا لم أحلّها قبل الزواج وسريعاً . .
- ما هي . .؟

- انظر يا غابرييل . . أنا في صدد الزواج بفقيرةٍ يعشقها صعلوكٌ فقير يعمل لديك ؛ وأعلم أنهُ إذا لم أتخلص منهُ سريعاً سيكون سبباً في مشاكل لا تنتهي لاحقاً . . .
- هل أدبّر له مكيدةً وأسجنه . .؟
- لا لا . . لن يجدي ذلك نفعاً ؛ أريد إزاحته بطريقةٍ هادئةٍ لا تثير الشكّ ؛ ولا تُبقي أملاً في قلب الفتاة . . .
- كيف . .؟
- أرسِلْهُ إلى البحر . .!
- لن يُجدي ذلك نفعاً أيضاً ؛ سترتاح لأشهر وربما لسنةٍ أو سنةٍ ونصف ومن ثمّ تعود إلى صداعكَ القديم . .!
- فكّر جيداً يا غابرييل ؛ أقنعْه أن يذهب في رحلةٍ إلى البحر بأجرٍ مضاعف ؛ أخبره أنكَ تشفق على حاله وستضاعف أجره وتعرض عليه فرصة العمر التي يتخلص بها من فقره ؛ ومن ثمّ تخلَّصْ منه في البحر . .
- فكرةٌ رائعة ؛ يا للدهاء الذي تأتي منهُ بأفكارك يا جاك ؛ ولكن تذكّر . . مهما كنتَ ذكياً بأنكَ لستَ القدَر ؛ رغم ذلك أنا في خدمتك يا صديقي . .!
- لا تتأخر في تنفيذ المهمة يا صديقي ؛ أنا أعتمد عليك
- لا تقلق . . سأبلّغك سريعاً بالنتائج

كان السفر بحراً رحلةً إلى المجهول ؛ لا يتاجر بهِ سوى فاحشو الثراء ؛ ليس لغلاءِ النقل ؛ بل لأنّ التجارة عبر البحار كالمقامرة ؛ لا تضمن استرداد مالك ؛ لذا احتكرها فاحشو الثراء ممن لا تَنقص ثروتهم لغرق سفينةٍ أو اثنتين ؛ لكنهم ضاعفوا أموالهم بسرعةٍ وجرأة ؛ وتتطلب هذه التجارة أيدٍ عاملةٍ قويةٍ وبحارةٍ ماهرين ؛ لذا كان العامل يتقاضى أجراً طائلاً في الرحلة الواحدة ؛ لأنهُ يخاطر بحياتهِ في ذهابٍ من الممكن أنْ لا إياب بعده .

يصرخ غابرييل :

- جون . . جون ؛ أحضر صعلوك العمّال دانييل إليّ سريعاً .

- حاضر سيدي . .

يفتّش جون بين العاملين على المرفأ عن وجهٍ أسمر ؛ رجلٌ في الثلاثين من عمره ؛ دائماً يعتمر قبّعةً رمادية ؛ ليس مفتول العضلات بالرغم من عمله حمّالاً في المرفأ ؛ لكنهُ قويٌ كفايةً لرفع كيس طحينٍ وحدَه :

- دانييل . . دانييل ؛ أين هذا المدعو داني . .؟

- نعم ؛ ماذا تريد

يستدير جون ليجد رجلاً يحملُ الطحين على كتفهِ كما يحملُ الرجلُ طفلاً في مدينة الألعاب ؛ الرجلُ الذي يبتسمُ دائماً بطريقةٍ تستفزّ أرباب العمل في المرفأ ؛ رغم ضيق ذات اليد والعمل الشاق وتسلّط أصحاب المال إلا أنهُ يبتسمُ كمَن يجد كلّ يومٍ مبلغاً طائلاً من المال . .

- يريدكَ السيد غابرييل . .

- هممم . . خذ احمل هذا الكيس عني لدقائق ريثما أرى ماذا يريد السيد وأعود . . .

يسقط جون والكيس معاً في اللحظة التي وضعه دانييل بين يدي جون ؛ ويسيرُ مبتسماً غير آبهٍ إلى مكتب السيّد غابرييل :

- مرحباً سيدي ؛ بعثتَ إليّ جون كي أحضر إليك . .

- أووه داني داني داني . . أهلاً وسهلاً بصعلوك العمّال الشهير ؛ نعم أرسلتُ في إثرك كي أخبرك بنبإٍ سارّ ؛ انظر داني . . نحنُ ننتقي دائماً أمهر العاملين وأقواهم لتجارتنا الخاصة ؛ التجارة التي تدرّ أموالاً طائلةً تكفي كي يستقلّ العامل بنفسه عنا بعد رحلةٍ أو اثنتين ويشتغل بتجارته الخاصة في تأجير الأيدي العاملة على سفن المرفأ ؛ وأنتَ تعلم أنّ المقرّبين منا فقط هم اللذين نختارهم للحفاظ

على وتيرة العمل في المرفأ بعد استقلالهم ؛ حيث نخدمهم بإرسالهم إلى البحر ؛ ويخدموننا بتوفير الأيدي العاملة بأقلّ تكلفةٍ بعد ذلك ؛ حين يستقلّون بأعمالهم .

- جميل ؛ وبماذا أخدمك سيّد غابرييل لم أفهم . . .

يضعُ غابرييل غليونه الضخم على المنضدة أمامه ؛ ويسكب كأساً من الماء البارد لداني ويناوله إياهُ ثمّ يكمل :

- أنا أقدّر اللذين يجتهدون في أعمالهم دون تذمّر ؛ اللذين يرون في كلّ يومٍ على هذا المرفأ الضخم فرصةً للحياة ؛ رغم أنّ الحياة ترى فيهم فرصةً لتعذيبهم وتضييق أمورهم ؛ انظر داني . . أنتَ بشوشٌ يتطلّع إليك كل ربّ عملٍ على أنكَ مثالٌ يجب أن يحتذي العاملون به ؛ رغم كرههم لابتسامتك الشهيرة . .

يبتسم داني بزهو بينما يقهقه غابرييل ؛ ويُكمل :

- لقد وقع اختياري عليك لكلّ هذه المواصفات ؛ وأنا أريد أن أرسلك إلى البحر بأجرٍ مضاعفٍ كي لا تضطر إلى العودة إليه مجدداً ؛ وتبدأ عملك الخاصّ الذي أنوي أن أشاركك فيه دون علم أحد ؛ حيث أريد احتكار اليد العاملة على المرفأ والتحكم بالتجّار اللذين يرفعون أجرتكم أو يخفّضونها كما يريدون .

- البحر . .؟ إنها مغامرة ؛ ربما لا أعودُ منها أبداً ؛ أنا أحاول أن أبني حياةً هنا مع امرأةٍ . . . .

- داني داني . . الحبّ لن يشتري لك منزلاً أو يدفع عنك ثمن زجاجة عطر!

- لكنهُ يضمن لي الأمل الذي سيجلب بيتاً وعطراً وامرأةً وأطفالاً وحياة!

- أووه . . أنتَ شقيٌّ شاعر ؛ لا عجبَ في أنّ نصف بنات المدينةِ يحلمن برجلٍ مثلك ؛ أنا ضاعفتُ أجرك بما يضمن لكَ حياةً كريمةً لا تشقى بعدها ؛ بل ستضمن مستقبل أطفالك اللذين لم تُرزق بهم بعد ؛ سيجلب لك المرأة التي تحبّ .

- المرأة التي أحبّ . .؟

يفكّر داني بعينين حالمتين في امرأةٍ تترك لهُ قطعة حلوى كلّ يومٍ في منديلٍ أزرق ؛ حلوى تخبئها يومياً من منزل امرأةٍ تعملُ لديها هي وأمها ؛ تسمح لهما بوجبةٍ واحدةٍ يومياً إضافةً إلى درهمين عن كلّ نهار ؛ لكلٍ واحدةٍ منهما درهماً . يحضرُ في الصباح قريباً من النافذة ليجد منديلاً أزرقاً ملفوفاً على قطعةِ حلوى ؛ يبتسم . . ويضعهُ في جيبه بعد أن يشمّ رائحته في كلّ مرة ؛ ثمّ يُكمل طريقه . كان يسألها حين يتقابلان لوقتٍ قصيرٍ وسريع :

- لماذا تخبئين لي الحلوى ؛ لستُ جائعاً . . ويضحك
- أُطعمك اليومَ قطعة حلوى كأنك ابني ؛ ثمّ تُطعمني بقية العمر بسعادةٍ حين أكون في منزلك غداً ؛ كأنك أبي!

المرأة التي أحبّ . . المرأة التي أحلم بها كَمن لا يستطيع أن يحلم إلا مرةً واحدة ؛ الحياة التي أضعتُ من أجلها سنتين دون أن أستريح ليومٍ واحد ؛ أحققها برحلةٍ واحدةٍ إلى البحر . .؟ هل من المعقول اختصار عمل سنتين في ستة أشهر أو سنة . .؟ لكنّ البحرَ كالقدَر الذي لا تعرف ماذا يخبئ لك في أيّ لحظة . . .

يقاطعُ غابرييل شروده :

- داني ؛ أين ذهبَ عقلك . .؟
- لم يذهب ؛ أنا موافق . . شريطة أن تسلّمني نصف أجري قبل الرحيل ؛ والنصف الآخر حال عودتي . .
- لا أستطيع . . أنتَ تعلمُ أنّ البحرَ غير مضمون رغم كلّ هذا ؛ كأنكَ تطلبُ مني أن أدفع أجر رجلٍ ميت

يقهقه غابرييل بوضاعة . . فيقاطعهُ دانييل :

- إما هذا أو لا أذهب ؛ لقد أسلَمْتَني إلى الموت ووافقتُك ؛ أعطِني نصفَ أجر موتي مقدّماً . .!

- شقيّ يا داني ؛ شقيّ . . لكنك تستحقّ كلّ دينارٍ أنفقهُ عليك ؛ خذ هذا نصفُ أجركَ كاملاً غير منقوص ؛ والمتبقي أدفعهُ حال عودتك من رحلةِ الموت يا شقيّ . . .

خرجَ داني غير مصدّقٍ لما فعل ؛ لقد قبضَ أجرَ رحلتهِ إلى المجهول ؛ لكنهُ في قرارةِ نفسه يقول «سأذهبُ إلى المستحيل وأعودُ سالماً من أجل عيني امرأةٍ تجعلُ الفجرَ ينتظرُها عند النافذة» ؛ وينطلقُ بسرعةٍ إلى منزل المرأة التي تعملُ فيها حبيبته ؛ يطرق النافذة بحجرٍ صغيرٍ كي تلتفتَ إليه ؛ تخرجُ بسرعةٍ بعد أن صُعقت لوجوده هنا ؛ وتقول في نفسها :

- هذا أمرٌ غير طبيعيٍ أبداً . . . .

في منزل المرأةِ الثريّة..

كانت المرأة الثريّة مولعةً بالخيول ؛ تملكُ مزرعةً في قصرها تمتطي فيها الخيل كما تشاء ؛ كانت تملكُ عدداً لا بأسَ بهِ من الخيول الأصيلة . وفي إقامتها الجبريّةِ اضطرت إلى قضاء معظم وقتها في العناية بهم ؛ كانت حريصةً على ركوب الخيل فجراً والانطلاق في مزرعتها حتى طلوع الشمس ؛ ثمّ تغتسلُ وتتناول إفطارها قرب نافورةٍ واسعةٍ في الجهة الغربيّة من باب القصر الداخلي ؛ لكنها هذه المرّة فضّلت تناول إفطارها والصعود مباشرةً للاغتسال والراحة وعدم النزول مجدداً ؛ فضّلت أن تسيرَ إلى مائدتها قرب النافورة على ظهر جوادها ؛ ترحّب بها الخادمة وهي تُمسكُ بزمام الخيل حتى تترجّل عنهُ ربّة المنزل :

- أهلاً سيدتي . .

- أهلاً . .

وفي اللحظة التي أخرجَت قدمها اليُسرى من السرج كي تترجل ؛ هاجَ الجوادُ فجأةً وبطريقةٍ غريبةٍ جداً ورفعَ ساقيهِ

الأماميّتينِ في الهواء مما جعلَ توازنها يختلّ ولم تستطع امتطاءه مرةً أخرى ؛ فسقطت عنهُ وارتطم عنقها من الخلف بحافة النافورة الحجرية ؛ وركضَ الجوادُ مسافةً ليست قصيرة وهو يجرّ صاحبته على أرض الحديقة وقد علقت قدمها اليُمنى في السرج .

- سيدتي . . سيدتي . . يا إلهي ساعدنا ؛ سيدتي . .

ركضت الخادمةُ إلى حيث توقّف الجواد وتبعها بقية الخدم اللذين كانوا يعملون في الحديقة ؛ وفُتحِت نافذةٌ عُلويةٌ بقوةٍ يطلّ منها ابنا السيدة في دهشةٍ ليعرفا سبب الضجيج في الأسفل . . وحين شاهَدَا والدتهما ممدّدةً على الأرض وساقها معلّقة في سرج الجواد ؛ أصيبا بالذعر ؛ وباتا يصرخان كالمجانين :

- أمي ؛ أمي يا الله ماذا حدث لها . . .

في خفةٍ وبلمح البصر كانا يقفان على سيقانهم عند رأس والدتهما الممدّدة على الأرض ؛ يهزّان جسدها الساكن كجثّةٍ هامدة ؛ وضعَ أحدهما رأسهُ على قلبها كي يستمع إلى نبضٍ يُعيد له شيئاً من الأمل . . .

- إنها حيّة . . أحضروا الطبيب ؛ الطبيب الآن بسرعة ؛ هيا هيا . .

امتطى أحدُ الخدم جواد السيدةِ حتى باب القصر ؛ صارخاً في الجنود اللذين يحرسون القصر :

- أفسحوا الطريق ؛ السيدة وقعت من ظهر الخيل وحالتها حرجة ؛ لا بدّ أن أُحضر الطبيب . .

- لا نملك صلاحيةَ إخراجك من هنا ؛ انتظر الضابط المسئول بعد الغروب كي يأذن لنا بإخراجك أم لا . .

- هل تفهم شيئاً مما أقول ؛ عليك اللعنة . . سيدة القصر وربّتُهُ في حالٍ حرجة ؛ انظر هنالك ماذا ترى عيناك . .؟

أرسل الجنديّ زميلهُ في الحراسة حيث تجمّع الخدمُ ورأى بنفسهِ دم السيدةِ وحالها ؛ عاد مسرعاً إلى صديقهِ يخبره بالواقعة ؛ مما جعلهُ يقررّ بسرعةٍ أن يفتح البوابة ويدع الخادم في سبيله لإحضار الطبيب . اندفعُ الجوادُ بسرعةٍ كأنهُ الريحُ إلى أقصى المدينة حيث يقطنُ الطبيب ؛ وحال معرفته بالأمر . . أمر سائقهُ بتجهيز العربة ريثما يبدّل ملابسه ويُحضر حقيبته ؛ انطلقَ الخادمُ أمامهما بجوادهِ وهو يصرخ في المارّة وعربات النقل وكلّ ما يمكنُ أن يعترض طريق الطبيب حتى بوابة القصر .

ترجّل السائقُ وأبرز أوراقهُ وأوراق الطبيب للجنديّ الذي فتّش العربة تفتيشاً روتينياً سريعاً وقام بفتح البوابة أمام العربة

التي شقّت طريقها إلى البوابة الداخلية . . . حيث استقبلتهم الخادمةُ وابنُ صاحبة المنزل وهما يقولان :

- إلى حجرة الضيوف ؛ هناك بسرعة ؛ بسرعة إنها تنزف . . .

فحصَ الطبيبُ أثر الجرح ؛ وقطّبه بمهارةٍ ووضعَ وسادةً صغيرةً من الثلج أسفل رأسها ؛ فحصَ نبضها ؛ وكذلك أضلاعها خشية أن يكون بها كسر ؛ ساقها اليُسرى لا شيء بها ؛ أما قدمُها اليُمنى فقد تورّمت عند المفصل بشكلٍ واضحٍ وتلوّنت بلونٍ أزرقٍ لا تُخطئه العين . . .

- إنّ كاحلها مكسور ؛ لا بدّ من وضع جبيرة . .

- افعل ما تظنّه صواباً أيها الطبيب ؛ لا تقُم باستشارتنا ؛ لقد حملْتُها وأخي حتى هنا ونحنُ نتوسّل إلى الله أن يعجّل بحضورك . .

- ماذا . .؟ نقلتماها حملاً بيديكما كما تحملان قطعة أثاث . .؟ لقد ارتكبتُما حماقةً ربما لا تُسامحان أنفسكما عليها أبداً . .

- ماذا تقصد . .؟ هل أخطأنا حين حملنا والدتنا إلى الظلّ ومددناها على أريكةٍ مريحةٍ كي نخفف عنها . .؟ هل

تريدنا أن نقف موقف المتفرّجين على والدتنا في غيبوبتها . .؟

- أظنّ أنّ أحد فقراتها تحرّكت جرّاء النقل الخاطئ ؛ وهذا يفسّر صعوبة تحريك عنقها عند تقطيب الجرح ؛ الآن فهمت ؛ ادعُ اللهَ أن يجنّبها مضاعفات السقوط وأن لا تكون قد أصيبت بشلل!

- ماذا . .؟ شلل . .؟ لا ؛ أرجوك لا تقل ذلك ؛ سأقتلُ نفسي إذا كنتُ سبباً في شلل والدتي ؛ سأقتلُ نفسي . . سأفعل ذلك بالتأكيد . . .

العاشقَين..

- تريد أن تقتل نفسك . .؟ هل أنتَ مجنون . .؟ لماذا تفعل ذلك . .؟ لماذا تُحاول تغيير مشيئة اللهِ بالذهاب إلى الموت . .؟

- لا تقولي ذلك يا حبيبتي ؛ لم أمُت بعدُ ولن أموت ؛ البحرُ حلٌ جذريٌ لانتظارنا الذي ربما يدومُ طويلاً . . . أنا لم أعترض على مشيئة الله بأن جعلني فقيراً ؛ والبحثُ عن المال في البحر أو السماءِ ليسَ تغييراً لمشيئة الله . .!

- لكنهُ تغييرٌ لوعدٍ قطعناهُ على أنفسنا . . .

- أنا لم أمُت بعد ؛ وكذلك لن أموت في البحر ؛ هذا ليس موتاً لائقاً بي أنا الوسيم داني . . .

يضحك داني كي يسرق ابتسامةً من شفتي حبيبته . .

- هل تجد الموتَ مضحكاً . .؟ أنتَ بقرارك هذا رميتَ درهماً في الهواء ؛ يستغرق سقوطه ستة أشهرٍ وربما سنةً كي أعرف حظي . .!

- لا لا . . لم أرمِ درهماً ولا ديناراً ؛ انظري . . هذه صرّة نقودٍ هي نصف أجري ؛ خذيها ؛ احتفظي بها ريثما أعود ؛ سنشتري منزلاً صغيراً لنا يا ريتا ؛ سنحقق حلمنا أخيراً . .

- احتفظ بالمال يا داني ؛ لا أستيقظ من النوم كلّ يومٍ كي أبحث عنه ؛ بل أستيقظ لأرى عينيك ؛ أنا مستعدّةٌ على انتظارك طيلة عمري شرط أن تبقى أمامي وأراك ؛ لكنني لا أقوى على انتظاركَ يوماً واحداً وأنتَ في غيبٍ لا أستطيع معرفته .

- أعدكِ . . أعدكِ يا ريتا أنني سأعود ؛ أعدكِ . . . .

- لا تعِدني بشيء . . مَن أخلفَ وعداً مرةً يخلفه مرةً أخرى ؛ لقد خيّبتَ قلبي ؛ إذ كان قلبي كلهُ يُحسن الظنّ والأمل بقربك ورؤيتك كلّ يوم . .

- انظري إليّ . . لا زلتُ هنا ؛ أنا أمامكِ الآن وغداً وبعد ستة أشهرٍ وسنةٍ وبعد قلبٍ تلوَ قلبٍ تلوَ قلبٍ أفنيه في حبكِ ؛ لا تقيمي عزاءً وأنا لا زلتُ موجوداً ؛ بأيّ صفةٍ سأحضرُ عزائي . .؟

يضحك داني بهدوء ويُمسك يدَي ريتا :

- أرجوكِ ابتسمي . .

- لا تسخر من أمر موتك ؛ سأقتلكَ إذا لم تعُد يا داني ؛ هل تسمعني . .؟

ينفجرُ داني ضاحكاً بشدةٍ وهو يسألُ :

- كيفَ تقتلين شخصاً لم يعُد . .؟

- لا شأن لكَ بطريقتي . . أحمق

- أحمق . . أحمق ؛ أوافق على حماقةٍ تدفعُ شفتين من زمرّدٍ على الابتسام . .

- أحمق

يقهقه داني عالياً ويقبّل يدَيها بحبّ . . .

انتهاء الحرب..

قرّر مجلس المقاطعة الجديد نزعَ ملكيّة سكن الطلاب من المرأة الثرية ؛ بحجةِ أنهُ استُخدم ضدّ المصلحة العامة والتخريب بإيواء الجنود المنشقين وتخزين السلاح ؛ وجعلَت منهُ ميتماً للأطفال اللذين خسروا أهليهم جرّاء الحرب القصيرة المتهوّرة . . عيّن المجلسُ الجديد امرأةً -كانت تعمل رئيسة الخدم لدى أحدِ أفراد الحكومةِ في العاصمة- مشرفةً على الميتم ؛ لم يضمّ الميتمُ أطفالاً كثيرين ؛ لكنّ ميزانيّته المحدودة أجبرَت المرأة على مشروعٍ تدفع بهِ العائلات أن تتبنى أيتاماً يحلمون بمنزل دافئٍ وحضنٍ آمن ؛ وأصبحَت ميزانية الميتم قائمةً على عددٍ محدودٍ من الأطفال ؛ بحيث كلما ازداد عددهم واحداً شرعَوا في البحث عن عائلةٍ في أرجاء البلاد كي تتبنى طفلاً منهم ؛ كانت المشرفةُ حنونةً وطيبة ؛ إذ لم تُرزق بأطفالٍ من قبل ؛ وقد توفّي زوجُها منذ سنواتٍ ولم تفكّر بالارتباط بآخر ؛ كرّسَت وقتَها لتوفير احتياجات الميتم وتدبير شؤونه ؛ خاصةً وأنّ الشتاء

الطويل يحدّ من إمكانية التبرّعات التي تصل إليهم عبر البلاد والعائلات بين فترةٍ وأخرى لصعوبة التنقّل ؛ وكانت تتبع سياسةً صارمةً في تخزين المؤونة والحفاظ دائماً على احتياطٍ يكفي شهراً أو أكثر بقليل في القبو ؛ لكنها تواجه نقصاً أحياناً وبشكلٍ يُقلقها ؛ إذ أنّ الأيتام في غالبهم لا يتجاوزون الثامنة من العمر ؛ أي لا يملكون الوعي الكافي ليتفهّموا مصاعب الحياة وقسوتها .

لكنها كانت تجدُ المخرج من أزمتها في كثيرٍ من الأحيان لدى رجلٍ وقورٍ يُدعى تشارلز . كان تشارلز شهيراً بأعمال الخير في المقاطعة رغم أنهُ لا يقطنُ فيها ؛ لكنهُ بين الحين والآخر يمكثُ فيها بضعة أيام كمحطةِ استراحةٍ في رحلاته الطويلة بين المدن وتجارته ؛ كان دائماً ما يتذكر أطفال الميتم بالحلوى وعربةٍ كاملةً محمّلةً بطحينٍ وعدسٍ وبعض البقوليات التي يعتاش بها الأطفال ؛ وترى فيه المشرفة خير مثالٍ للرجل النبيل الذي لا يعرف الأنانية ؛ لقد أنقذها غيرَ مرةٍ وفي وقتٍ غير متوقع أبداً .

لقد شارفت مؤونتها على النفاد . . وسمعَت بأنّ السيد تشارلز قد وصل إلى المدينة البارحة لكنهُ لم يعرّج على الميتم كعادته ؛ وقررت أن تذهب إليه بنفسها هذه المرة وتطلب كرَمهُ في مساعدتها بمؤونة الميتم وبعض الأغطية التي يحتاجها

المكتبة

الأطفال في بردٍ كهذا ؛ تأنقَت وحملَت نفسها إليهِ وفي يدها سلةُ كعكٍ طازجة أعدّتها من حصة الأطفال بالدقيق ؛ وحال وصولها طرقت الباب ففتحت لها خادمة المنزل الذي يستأجره السيد تشارلز دائماً :

- مرحباً . . كيف أخدمكِ . .؟

- هل السيد تشارلز موجود . .؟

- مَن يسأل عنه . .؟

- أووه . . السيّدة اللطيفة من الميتم الصغير ؛ أهلاً أهلاً . . .

يقاطعهما السيّد تشارلز ويرحّب بالمشرفة ؛ ثمّ يأمر الخادمة بحمل السلّة من يدها وإعداد الشاي . . .

- مرحباً سيدتي . . إنها لحظةٌ مناسبةٌ ورائعة تلك التي حملتْكِ على زيارتي .

- شكراً لكرمك أيها النبيل تشارلز ؛ لقد علمتُ بوصولك البارحة وتعجّبتُ لعدم زيارتك الميتم كما هي عادتك ؛ وخشيتُ أنّ أمراً ما ألمّ بك أو أنّ تصرّفاً غير لائقٍ منا قد أغضبك وحملك على منع كرمك عن الأيتام . .

- لا . . لا ؛ لا تقولي ذلك سيدتي ؛ تفضلي اجلسي ؛ كلّ ما في الأمر أني كنتُ مرهقاً جداً وذهبتُ إلى المنزل مباشرةً على أن أسافر غداً بمشيئة الله . . .

- تسافرُ غداً ؛ لمَ العجلة أيها النبيل تشارلز . .؟
- ليس الأمرُ سهلاً ؛ تتطلّب التجارة جهداً مضاعفاً أحياناً كي تستمرّ .
- أعانك الله . .

تسكب الخادمةُ كوباً من الشاي وتضعهُ أمام المشرفة التي تفضّل قطعة سكرٍ واحدة ؛ بينما يُشير تشارلز للخادمة بالانصراف ثمّ يسكب الشاي لنفسه ويضعُ قطعتين من السكر ؛ يقلبّ تشارلز كوبهُ ويعود بظهرهِ إلى الخلف :

- سيدة ماري . . أنا أعتذر عن عدم مروري البارحة ؛ لقد . . .
- سيد تشارلز . . أعتذر عن مقاطعتك ؛ لقد دفعني نقص المؤونة إلى زيارتك في المقام الأول ؛ لذلك حضرتُ لأطمئنّ على علاقتك الكريمة بالميتم ؛ والاطمئنان على حالك في ذات الوقت .
- جميل جميل . . أنا أيضاً كنتُ أريد مقابلتكِ والتحدث بأمرٍ يخصّني .
- يخصّك . . تفضّل سيدي
- تعلمين سيدة ماري أنني وحيد ؛ لستُ مرتبطاً بامرأةٍ منذ وفاة زوجتي . . وكنتُ أريدُ التحدّث إليك بهذا الشأن .

- سيد تشارلز . . أنتَ كريمٌ جداً ؛ لكني لم أعلم أنّ لكرمك حدودٌ أبعد مما رأيتُ وعرفت ؛ بصراحةٍ لا أعلم ماذا أقول . .!

- يبدو أنكِ فهمتِني بشكلٍ خاطئ ؛ إنّ أيّ رجلٍ يفهم الحياة بشكلٍ جيد في هذا العالم سيتطلّع إلى الارتباط بامرأةٍ مثلكِ سيدة ماري ؛ لكني أعتذر عن الكلام بطريقةٍ غير مفهومة . .

تعدّل المشرفة من جلستها بعد أن شعرَت بحرجٍ كبير . .

يستطرد السيد تشارلز :

- لقد فكرتُ في أن أتبنى طفلاً من الميتم ؛ أتخذهُ ولداً بعد أن حرمني الربّ هذه النعمة .

- تتبنى طفلاً . .؟ لكنّ القانون لا يسمح بذلك ؛ حيث أنهُ لا زوجة لديك ؛ ولا يوجد قانونٌ يسمح بذلك . .

- لذلك فضلتُ الحديث معكِ مباشرةً لاستثنائي من هذا القانون والتغاضي عن هذا الشرط فيه ؛ أنا لم يعُد يهمني من الحياة مالٌ أو جاه ؛ لقد حصلتُ على كلّ ما أريد سوى الذرية ؛ إنها حياةٌ لم أعِشها من قبل .

- أتفهّم ذلك سيد تشارلز ؛ لكنّ أمراً كهذا لا يمكن أن أفعله ؛ إنّ الطفل يحتاج إلى أمٍ تحنو عليه وتحتويه ؛ تهتمّ

بمأكلهِ ومشربهِ وملبسه ؛ تبقى معهُ في المنزل ؛ أما حياة السفر التي تتبعها لا يمكن أن تجعلَ الطفل مستقراً .

- سيدة ماري . . لقد رأيتِ بنفسكِ ما يمكن أن أفعله وأقدّمه للميتم ؛ وأنا مستعدٌ للتكفّل بمؤونةِ سنةٍ كاملةٍ مقابل الحصول على طفلٍ يحملُ اسمي ؛ وهنا ما يُثبتُ صدق نيّتي . . هذه ورقةٌ مني ينقصها تدوين المبلغ الذي ترينهُ مناسباً .

تنهضُ المشرفةُ منزعجةً وكذلك يفعلُ السيد تشارلز احتراماً لوقوفها ؛ لكنها تأخذ نفساً عميقاً ثمّ تبتسم وتقول :

- سيد تشارلز . . شكراً على كرم ضيافتك وكرم مساعداتك الكثيرة قبل ذلك ؛ لكني لا أستطيع التضحية باستقرار طفلٍ ولو كان الثمنُ مؤونة مئة عام ؛ نهارك سعيد . .!

- سيدة ماري . . . انتظري أرجوكِ ؛ أنا . . .

تخرجُ المشرفة بسرعةٍ بعدَ أن وضعَت وشاحها الرماديّ ؛ وحملت السلة الفارغة من الكعك ؛ وسط ذهول الخادمة التي تحملُ طبقاً مليئاً بالكعكِ في طريقهِ إلى غرفة الضيوف .

وداعٌ مُرّ..

المرفأ مختلفٌ هذا اليوم . . كانت أصوات العاملين تملأ المكان ؛ ورغم الدفء الذي يغمر العاصمة الساحلية ؛ إلا أنّ قلبَين يرتعشان من البرد في هذا الصباح ؛ كانت ريتا تبحث بين الوجوه التي تطلّ من كلّ سفينةٍ في المرفأ . . تشاهدُ سفينةً في آخر المرفأ تغادر ؛ تحثّ قدمَيها على السير بسرعة ؛ تصلُ وقد ابتعدَت السفينةُ مسافةً تكفي لكي تمنع صوتَها من الوصول ؛ تصرخ للحلم الذي يرتدي قبعةً رمادية على ظهر السفينة «داني ؛ دانييل» ولأول مرةٍ في حياتها تصرخُ بكلمةٍ تُجبر المرفأ على الصمت :

- حبيبي . . . .

تنتبه لنفسها وقد عمّ الهدوء أرجاء المكان ؛ وتشعر بالخجل الشديد رغم اقترابها من البكاء ؛ لقد فاتتها عيناه ؛ لقد منعها الطريق الطويل من صوتِه الدافئ ؛ صوته الذي يخرجُ كوقار أبٍ عائدٍ إلى أبنائه ؛ صوتهُ وهو يبتسم عند كلّ كلمةٍ يقولها ؛ حتى

ولو كانت تتعلق بموته . . . وانحدرَت دمعةٌ صغيرةٌ ظلّت تجرفُ ميناءً كاملاً وهي تعكسُ صورتُه حين انحدرَت على خدّها . . .

- نعم . . أنا داني ؛ هل سمعتُ امرأةً جميلةً تقولُ «حبيبي»

تستديرُ ريتا لترى رجلاً لا يمكن للحياةِ أن تجلب أفضل منه ؛ أسمرها الشقيّ ؛ ترتمي بين يديهِ غير آبهةٍ بكلّ الأعين التي ترقبُ ما سيحدث :

- أحمق . . وهي تضمّه كما لو عادَ من موته

يُفاجَأ داني بما فعلَتْ . . ثمّ ترتخي ذراعاهُ حول كتفيها بحنانٍ وهو يقول :

- لقد قبلتِ بالزواج من أحمق ؛ تذكري أنني لم أُجبركِ على هذا . .

يرتفعُ صوتُ بكائها ؛ يفهمُ كلماتٍ متقطعة :

- غادرْتَ . . قبّعتَك الرّما . . . ولم تسمـ . . صوتي . . . .

تأخذ نفَساً طويلاً وتمسحُ خدّيها ؛ ثمّ أمسكَت وجههُ بيديها الصغيرتين وقالت :

- كدتُ أقتلك يا داني ؛ أكرهُ هذا الذي يحدث معي ويجعلني غبيةً دائماً . .

- بل يجعلكِ امرأةً رائعة ؛ أحبكِ يا ريتا ؛ لدرجةِ أني

سـمـعتُ صـوتكِ وأنا على متن السـفـينة التي غـادرَت وقفزتُ منها إليكِ . .

اتّسَعَتْ عيناها للحظاتٍ ثمّ أدركَت مزاحَهُ . . وهمْهَمَتْ :

- هممم بالطبع يا حبيبي القويّ . . لكنك قفزتَ أكثر من اللازم ؛ إذْ صرتَ خلفي وليس أمامي . .!

- هل رأيتِ . .؟ قلتُ لكِ أن تصـــدّقي أنني خـــارقٌ للعادات . . .

- لقد صدّقتُك يا حبيبي ؛ أنتَ بطلي . .

تضـحك ببـراءةٍ على كـذبة داني ومـجـاراتهـا له . . حـتى قاطعَهَا قائلاً :

- ابتعدي قليلاً . .

- ماذا بكَ حبيبي . .؟

- وداعاً ؛ سأقفزُ عائداً إلى السفينة . . .

- أحـمق ؛ دَع عنكَ خـرق العـاداتِ والمواعـيـد ؛ إياك أن لا تعود يا حبيبي ؛ ستفطر قلبي والله

- لا عليكِ حبيبتي ؛ سأعودُ ولو كلّفني ذلك عمري . .

يضع جبينه على جبينها ؛ ثمّ يقبّل رأسـها ويضمّـه بحبٍ إلى صدره . .

- ريتا . .

- ماذا . .؟

- سـأتركُ قلبي هنا ؛ في هذه المدينة الدافـئـةِ بين يديكِ ؛ سأستـردّه يوماً ما عندما أعود . . . كوني بخـير من أجل قلبي يا صغيرتي .

- داني . . قلبي باردٌ كالموت ؛ أنا خائفة . .

- لا تخافي . . بضعة شهورٍ وأحقِّقكِ يا وعد السماء ؛ وداعاً

- وداعاً يا حبيبي ؛ خبِّئْ عينَيك عن البكاء ؛ لا تدعْ دمعةً واحدةً تجدُ طريقها إليهما . . وداعاً يا حبيبي

- وداعاً حبيبتي

- لقد استيقظت السيدة . .

ركضت الخادمةُ إلى حجرة الابن الأكبر وطرقت الباب ؛ وبعد أن سمحَ لها بالدخول قالت لاهثة :

- لقد استيقظت السيدة . . لقد فتحت عينيها!

اندفعَ الابنُ خارج الغرفةِ إلى حجرةِ إخوتهِ يطرقُ الباب بقوةٍ ويفتحهُ ليخبرهم بالأمر ؛ ثمّ هبط سريعاً إلى حجرةٍ أعدّوها خصيصاً لوالدتهما كي يعتنوا بها ؛ بصوتٍ خافتٍ بعد أن وقفَ عند رأس والدته :

- أمي . . هل تسمعينني . .؟

فتحَت الأمّ عينيها ببطءٍ وصعوبة ؛ كان الضوءُ قوياً في نهارٍ هو الأول لها بعد ثلاثة أسابيع قضتها في غيبوبةٍ تامة . .

- أمي ؛ أنا ابنكِ يا حبيبتي . . نحنُ هنا جميعاً هل تسمعينني . .؟

لم تستطع قول كلمةٍ واحدةٍ ؛ لكنها أغلقَت جفنيها كإجابةٍ

على سؤاله ؛ ابتسموا وهم يمسكون يدَها برفق :

- حمداً لله على سلامتكِ يا أمي ؛ لقد عشنا في قلقٍ جميعاً ولم ننعم براحةٍ أو هدوء منذ الحادثة ؛ لقد مرّت ثلاثة أسابيع منذ ذلك اليوم المشؤوم ؛ نحنُ لا نصدّق أعيننا ؛ أنتِ بخير يا أمي ؛ حاولي قول كلمةٍ واحدةٍ ؛ أو لا تحاولي . . لا بدّ من أنّ حبالكِ الصوتية غير قادرة على الاستجابة بعد هذا الصمت الطويل ؛ لا ترهقي نفسكِ ؛ سنرسل في إثر الطبيب كي يحضر .

حضر الطبيبُ كعادتهِ في الموعد المحدد ؛ وقبل أن يبعثوا أحد الخدم كي يحضرهُ فاجأهم بقدومه ؛ أخبروهُ بما حدث . . .

- سيدتي . . هل تشعرينَ بيدي على ذراعكِ . .؟ أغمضي عينيكِ مرةً كي أفهم أنكِ تشعرين ومرتين كي أفهم نفيكِ .

أغمضتْ عينيها مرةً واحدة . .

- حمداً لله على سلامتكِ ؛ إحساسكِ بجسدكِ سليمٌ والحمد لله ؛ كنتُ أخشى حدوث مضاعفاتٍ كبيرة ؛ ماذا عن ساقيكِ ؛ هل تشعرين بيدي . .؟

لم تفعل شيئاً بعينيها ؛ فأعاد لمسها بقوةٍ أكبر هذهِ المرة :

- هل تشعرين بساقيكِ سيدتي . .؟

كان الجوابُ صاعقاً على الجميع ؛ إذ لم تُغمض عينيها مرتين كي تنفي إحساسها بساقيها ؛ لكنّ دمعةً واضحةَ المغزى انحدرَت على خدّها ؛ واهتزّت شفتاها كمَن يريد الكلام ولا يستطيع ؛ صُعق الابن الأصغرُ مما رأى ؛ ولم تحملْهُ قدماه على الوقوف فهبط بجسده على الأريكة المجاورة في ذهولٍ تامّ . أما الابن الأكبرُ فأخذ يُعيد سؤاله على الطبيب بإنكار :

- أمي لا تستطيع الكلام . .؟ هل أصبحَت خرساء . .؟ أجبني أيها الطبيب ؛ ماذا حلّ بالمرأةِ التي نحبّ والممدّدة أمامك . .؟ هل أصبحَت خرساء . .؟ هل أصبحت خرساء . .؟

- المرأةُ التي تحبّون ؛ نصفُها أخرس . .! لقد فقدت القدرة على الكلام والمشي ؛ وربما تحدث مضاعفاتٌ أكبر مع الوقت . . .

- افعل شيئاً ؛ أنتَ طبيبٌ تملك الحلّ دائماً . . افعل شيئاً

- للأسف يا بنيّ . . الطبّ ليس دائماً إيجادَ الحلول ؛ بل الإيمان بالقُدرة ؛ لا أقدر على فعل شيء . . .

الزفاف..

في العاصمة . . تستعد الفتاةُ الجميلة (ريتا) لزفافها المزمع إقامته خلال أيام ؛ دون رغبةٍ تُوافِقُ على كلّ شيء ؛ أبوها في عمرٍ لا يسمح له بالرفض والرحيل إلى مكان آخر غير هذا وبدء حياة جديدة ؛ كانت تعلم أنّ الزواج بثريٍّ خيرٌ من معاداته ؛ لكنه الثريّ الذي أنهى حلمها الأول في أن تتزوّج برجلٍ تحبه ؛ كيف لها الآن أن تحبّه . .؟ بل كيف لها أن تعيش معهُ وهي ترى في عينيه كلّ يومٍ رجلاً لا تعرف إن كان سيعودُ حياً أم سيلقى حتفه في رحلتهِ التجارية في عرض البحر ؛ لقد مرّ عامٌ تقريباً على رحيله ؛ ومرّ عامٌ تقريباً على إصرار جاك على الزواج من ريتا ؛ رغم أنّ والدها قد أجّل الأمر كثيراً لكنهُ لم يعُد قادراً على تأجيله أكثر ورضخ للأمر الواقع ؛ الأمر الواقع كصاعقةٍ على فؤاد ريتا ؛ التي حاولت بكل الطرق أن تمنع هذا الزواج ؛ لكن ماذا تستطيع أن تفعل ؛ لا سيّما وأنّ الحبّ سببٌ غير كافٍ لاتقاء شرّ جاك .

الحبّ لا يقيكَ من المكر والخبث والفقر والحاجة ؛ الحبّ لا يقيك من البرد والعراء ؛ لا يقيك من التقدّم في العمر عشرة أعوامٍ بعد كلّ عامٍ واحدٍ تقضيهِ منتظراً .

مرّت مراسم الزفاف كعزاءٍ في عينَي ريتا . . وكذلك كانت بقية الأيام التي قضتها مع جاك . . ستة أشهر معه كانت كفيلةً بحملها لطفلها الأول ؛ الأمر الذي أصابها بهستيريا كادت معها أن تنهي حياتها ؛ لكنها نجَت من ذلك بعد أن ألقت بنفسها من نافذة الطابق العلويّ ؛ وخفّفَت الأغصان الكثيفة جداً لأشجار القصر من حدّة السقطة ؛ لقد أجهضَت جنينها الأول ؛ جنينها الذي كانت تحلمُ بهِ من رجلٍ أسمرٍ يقطعُ الأُفقَ من أجل عينيها ؛ لكنّ الحياة تأخذُ بيدٍ أكبر من اليد التي تُعطي بها .

جُنّ جاك لخبر سقوط ريتا ؛ كان يحبّها على الرغم من كرهها له وتمنّعها الدائم عنه ؛ أحضرَ ثلاث خادماتٍ كي يحمينها من نفسها طيلة الوقت ؛ إذا غابت واحدةٌ لا تغيب اثنتان ؛ إذا غابت اثنتانِ لا تغيب واحدة ؛ وهكذا . . مرّت شهورٌ ما بعد الإجهاض كما تمرّ السكّينُ على عنق ؛ تنحرُ سعادتها ببطءٍ لكنها لا تموت ؛ تملأ رئتها بالوجع لكنها لا

تختنق ؛ إنّ الحبّ الذي يُمنعَ فجأةً أشدّ ألماً من الحبّ الذي ينتهي بالخيانة ؛ تظلّ معهُ معلّقاً كشاةٍ ترى كلّ أدوات الموتِ ولا تختار بأيِّها تموت ؛ وسرعان ما تعافت ريتا واستعادت قواها ؛ لكنّ روحها كعجوزٍ على كرسيٍ مُدولب . . .لا ترى حياةً في أيّ شيءٍ إلا وتتذكّر لحظة الفراق القريبة ؛ تفقدُ رغبتها في السعادة ؛ رغم أنّ السعادةَ حاضرة ؛ إلا أنّ سببَ السعادة لم يعُد مقنعاً . . .

ظلّت ريتا بين سبعةِ جدران ؛ ثلاثةٌ من هذه الجدران تسير معها أينما تسير ؛ وأربعةٌ تختلف باختلاف المكان الذي تكون فيه ؛ يحملنها إذا سقطت ؛ يقطّعن لها فاكهتها ؛ يُبعدن عنها كلّ ما هو حادٌ ويحمل فكرة الموتِ في شكله ؛ الموتُ كالغيابِ ذكي . . توأمان يشبهان بعضهما لدرجةٍ تبعث على الحيرة ؛ يسكنُ الموتُ إطاراً زجاجياً لصورة ؛ بينما يسكن الغيابُ صورةً في إطارٍ زجاجي ؛ يأخذ الموتُ أشكال البردِ بينما يُصبحُ الغيابُ بردَ الأشكال وفتور دفئها ؛ أينما رأيتَ الغياب رأيتَ توأمهُ الموت ؛ وفي البحر موت . . لكنّ الغيابَ في البحرِ هو غيابُ الموت نفسه ؛ لا شيء يؤكدُ موتكَ أو عودتك ؛ يصبحُ الغَيْبُ زجاجاً سائلاً . . يتماهى بحركةٍ مستفزّةٍ كجبالٍ ساخرة ؛ الغيبُ أقوى من الموتِ والغياب ؛ هوَ أكثرُ الأشياءِ غموضاً وغرابة .

ظلّت ريتا تحتَ المراقبة الدائمة . . حتى جاء نبأ حملها الثاني ؛ استبشرَ جاك بالخبر ؛ زاد عدد الخادمات إلى خمس ؛ كانَ أجرهنّ يضاهي أجور خدَم القصر كافة ؛ لكنّ عقابهنّ إذا أخطأنَ يُضاهي عقاب أهل الأرض ومَن عليها . .!

حاولت ريتا أن تفعل كلّ شيءٍ كي تمنع هذه الحياة أن تخرج منها ؛ لا تريد طفلاً إلا من دانييل ؛ لا تريدُ حياةً إلا معَ دانيل ؛ لا تريد موتاً إلا بين يدَي دانيل ؛ آآه دانيل ؛ أنتَ الشيءُ الوحيدُ الذي جمعَ توأمَي الموت والغياب في صورةٍ واحدة ؛ في جسدٍ واحد ؛ لا فرق بينهما أبداً ؛ كأنما انصهرا بحرارة الفقدِ معاً وامتزجا بطَرْقِ الشوق والوجع واتخذا شكلك ؛ دانييل . . كما يتحسّس المبتور موضع ساقِهِ التي فقدَها أتفقّد قلبي ؛ لقد كان شيءٌ ما ينبضُ في أضلعي ؛ لقد أعطيتَني قلبكَ كي تستردّه عندما تعود ؛ لكنكَ أخذتَ حياتي كلّها ولم تعُد ؛ دانيل . . أبكيك ؛ أبكيك ؛ آآه يا دانيل ؛ يا وجعاً يسكنُ مفاصلَ الوقت ؛ يا شيخوخةَ قلبي يا دانييل ؛ يا طفلاً لم تُذِقْهُ يدِي سوى الحلوى ؛ لماذا أطعمتَني بكاءكَ يا دانييل . .؟ لماذا ألقمتني علقمَ غيابك . .؟ لماذا تخرجُ صورتك من البحرِ كلّ مرةٍ أنظرُ لهُ فيها وتسْخر من شوقي بلؤم الشامتين . .؟

دانييل . . أجدكَ لو أموت . .؟ أخاف أن أفعلها ولا أجدكَ في انتظاري ؛ وأصابُ بهلعٍ في عالمٍ لا أعرفُ فيهِ أحداً سواك ؛ أجدك لو أموت . .؟ سأخافُ عليكَ في موتٍ لا أجدك فيه . . أن تعودَ ولا تجدني وتحزن ؛ أنا أخافُ عليك الحزن يا دانييل . . يا أسمرَ عينيّ الحزينتين . . .

لكنّ القدَرَ قال كلمته . . ليصرخَ طفلٌ للمرةِ الأولى في قصرٍ واسع وفخم ؛ السعادةُ تنتظرهُ بين يدَي أبٍ ثري ؛ ملعقة الذهب بمعناها الحرفيّ كانت مجهّزةً لتُطعم فمهُ الصغير .

«دانييل . . لقد أنجبتُ طفلاً ؛ لهُ من أمهِ عيناها ؛ لكن لا شيءَ مما أحبهُ منك فيه ؛ سأنتقمُ لنا يا داني . . .»

انتحار..

- أخي . . أيها المجنون ؛ ماذا فعلت يا أحمق ؛ لماذا تفعل بنا هذا . .؟ يا إلهي كيف أطعتَ نفسك . . .

كان الابنُ الأكبر للمرأةِ الثريّة يصرخُ كالمجنون وهو يحاول إيقاف الدم المتدفّق من معصمِ أخيه . لقد قرّرَ أن يُنهي حياتَهُ بعد أن تسبّبَ في شلل والدته وإصابتها بالخَرَس «ألا يكفي أننا مقيّدون بإقامةٍ جبريةٍ لا يُسمح لنا برؤية العالم وإكمال حياتنا كما يحيا بقية أهل المقاطعة . .؟ ألا يكفي هذا القصر / السجنُ . . حتى أزيد من معاناةِ والدتي حين أفقدتُها نعمة السير والكلام ؛ أكرهُ السناجب ؛ أكره الحيواناتِ الصغيرة البغيضة كلها ؛ لماذا يُفزعُ كائنٌ بغيضٌ صغيرٌ مثلك جواداً يحملُ أمي ويُسكت نصفَ جسدها . .؟»

كان يحملُ واحداً في يدهِ وهو يصرخُ بهستيريا الغاضبين ؛ قطعَ شرايين معصمهِ بعد أن قطعَ رأس السنجاب . . .

كان المنظرُ مفزعاً في كلّ مرةٍ ينظرُ فيها الأخُ لأخيه المحتضر جانب سنجابٍ لا رأس له ؛ كان يسألُ كلّ الأسئلة الغبية التي يُمكن أن تنتاب رأس إنسان حائر ؛ وبعد أن تأكدَ من موتهِ جلسَ على ساقيهِ أمامَهُ دون حراك ؛ ظلّ ينظرُ إلى عينين فارغتَين من الحياة وباردتَين للمرة الأولى في حياته .

للمرّة الأولى منذُ إقامتهم جبرياً . . ينجحُ أحدٌ في الخروج من ذلك القصر ؛ كان نبأ موتهِ ضئيلاً في الجريدة ؛ يعكسُ الحالَ التي وصلت إليها هذه العائلة بعد أن ساهمت في خيانة الحاكم .

انتقام..

قرّرت ريتا أن تعاقب جاك على كلّ شيء ؛ أن تنتصر لذاتها بعد أن فشلت في تحقيق هدفها ؛ إنها امرأةٌ من النوع الذي يتجبّر إذا كُسرَت ؛ قرّرَت أن تُلحق بجاك عقاباً لا يمكنُ لهُ أن يتصوّره ؛ عقابٌ سيستمرّ ما شاء اللهُ لهُ ذلك . . عكَفَت ريتا على الهدوء والضحك وملاعبة صغيرها الذي طلبَت من جاك أن لا يُسمّيه حتى يبلغ أربعين يوماً ؛ كان الطفلُ مدللاً من كلّ مَن في القصر ؛ انقضَت أربعة أسابيع . . وكلّ يوم يمرّ تُظهر فيه ريتا تحسناً ملحوظاً وقبولاً للحياة ؛ لكنها لم تتقبل جاك بسهولةٍ كما كان يتوقع بل ظلّت تتمنّعُ عنهُ وترفضهُ أحايين كثيرة .

بعد أن بلغ الطفلُ أربعينَ يوماً قرّرَت ريتا أن تخرجَ في احتفالٍ كبيرٍ وتقدّم المولود إلى أصدقاء جاك والمقرّبين منه من التجار ومرموقي العاصمة ؛ أقنعَت جاك بإقامة حفلٍ ضخمٍ لمولوده الأول الذي صالحَها مع الحياة ؛ كانت تحثّه على دعوةِ جميع مَن يعرفهم دون استثناء ؛ وكانت تُشرفُ بنفسها على

تجهيزات الحفل بأدقّ تفاصيلها ؛ واختارت مهداً مذهّباً لابنها كي تُقدّمهُ فيه للحاضرين ؛ واتفقت مع جاك على اختيار اسم مولودهما معاً خلال الحفل ؛ كان جاك سعيداً ؛ وكانت ريتا تعدهُ بتشريفهِ أمام رجال المجتمع وسيّداته ؛ حتى أنها قالت لهُ «سأجعل كلّ النساءِ مطلّقاتٍ هذه الليلة بعد أن يرى الرجالُ بأعينهم كيف أجعلك سعيداً إلى درجةٍ غير متوقعة مما سأفعلهُ خلال الحفل» .

جاء موعد الحفل . . بدأ المدعوون في التوافد إلى القصر الضخم المطلّ على حديقةٍ واسعةٍ تفصلُ بينهُ وبين شاطئٍ رائع ؛ الموسيقى عاليةٌ بما يبعث الحبّ في كلّ القلوب ؛ والرقصُ لا يتوقفُ في دائرةٍ حتى ينطلقَ في دائرةٍ أخرى بالقاعة الكبيرة . . اتفقت ريتا مع جاك على حمل طفلها بنفسها إليه ؛ ثمّ يقفان على شرفةٍ ترتفعُ متراً عن أرض القاعة وتطلّ عليها ؛ ثمّ يسيران معاً ويتوسّطان جمع الأحبة والأصدقاء .

اقتربَ موعد حضور ريتا . . كان جاك متأهباً كالعريس في ليلة زفافه ؛ ينظرُ إلى الوقتِ وإلى ممرٍ يُفضي إلى الشرفة ؛ تجاوزت الساعةُ الموعدَ المحدد . . سارَ إلى الشرفةِ كي يقف مع ريتا حين تحضر ؛ اختصاراً للوقت ؛ مرّت نصف ساعةٍ ولم تحضر ريتا ؛ بيدَ أنّ قائد الفرقة الموسيقية قد أعلن بعد ترتيبٍ مُسبقٍ

عن حضور ابن جاك مع والدتهِ بعد قليل ؛ ورغم أنّ كلّ الأنظار متوجهةً إلى الشرفة إلا أنّ جاك هو مَن يظهرُ وحيداً حتى الآن . . لقد أصبح مرتبكاً ؛ ونادى إحدى الخادمات الخمس ؛ المُوكَلات بحراسة ريتا والمنشغلات بضيافة الحاضرين ؛ كي تذهب وتعرف سبب تأخيرها ؛ دارت أفكارٌ كثيرةٌ في رأس جاك ؛ لكنهُ ظلّ يبتسم رغماً عنهُ في وجوه الحاضرين ويلاطفهم وهو يُشير إلى الوقت بحركةٍ ساخرة ويرفعُ كتفيهِ إلى الأعلى كنايةً عن عدم معرفته بسبب التأخير ؛ عادت الخادمةُ مسرعةً والقلقُ يعتلي ملامحها . . همسَت في أذن جاك ؛ تغيّرت ملامحه ؛ انتبهَ لهُ أغلبُ الحاضرين ؛ انسحبَ راكضاً إلى الأعلى ؛ دخل إلى حجرتها وهو يصرخ :

- ريتا . . لماذا فعلتِ هذا ؛ لماذا . .؟ لماذا . .؟

سقط على ركبتيه . . ودوّت صرخة غضبٍ مقهورةٍ أرجاء القصر .

زائرةٌ غريبة..

غادر تشارلز المقاطعة فجأة . . عرفت المشرفةُ بذلك حين لم ترَ المنزل مُضاءً ذلك المساء ؛ لقد خسرت مؤونة عام كاملٍ كي تحمي طفلاً واحداً ؛ إنها أمٌ لم يسمح لها القدَرُ بأن تكون أماً . لقد أُسقط في يدها أنّ المؤونة لا تكفي حتى نهاية شتاءٍ لم يمضِ نصفهُ إلى الآن . سمَعت طرقاً على باب الميتم ؛ تساءلت عن هوية زائرٍ في ليلةِ شتاءٍ كهذا ؛ فتحت بابَ الميتم . . وإذ بامرأةٍ تبدو عليها معالم الثراء تسألها :

- هل من الممكن أن أبيت الليلة هنا . .؟

- لكن مَن أنتِ . .؟

- لستُ من الجوار ؛ لكني أملكُ ما يكفي من المال كي أدفع أجر مكوثي هنا . .

- هنالك نُزُلٌ في الجهة المقابلة للحيّ يمكنكِ الذهاب إليه . . .

- لا أرجوكِ ؛ أنا امرأةٌ وحيدةٌ أخشى من مضايقة أحدهم لي إذا سكنتُ في نُزُلٍ لا أعرف أحداً فيه .

- تفضلي . .

دفعَت المرأةُ صرّةً من الدنانير لها ؛ وأصرّت على المشرفةِ أن تأخذها ؛ ثمّ دلّتها المشرفةُ على غرفةٍ لم تُسكن من قبلُ في الميتم . . تقعُ في نهاية الممرّ قرب مدخل البرج الشرقيّ ؛ وقالت :

- تستطيعين المبيت هنا إن شئتِ

تتفحّصُ المرأةُ المكانَ بعينيها . . سريرٌ صغيرٌ متواضع ؛ قنينةُ ماءٍ فارغة ؛ خزانة ملابس صغيرة ؛ حقيبة عسكرية فارغة ؛ قالت :

- نعم . . تؤدي هذه الغرفة الغرض

تمدّ المشرفةُ يدَها كي تحمل عن المرأةِ بعضاً مما تحمل فتشيحُ المرأةُ بجسدها إلى الجهةِ الأخرى تعبيراً عن رفضها ؛ تدخل إلى الغرفةِ وتجلس على طرف السرير منهكةً تماماً ؛ تتذكرُ الممرّ السريّ الذي ركضَت فيه والمليء بالجرذان ؛ تتذكر الجوادَ الذي أسرجَتهُ وحدَها ؛ تتذكرُ المدينة التي ظلّت تبتعد شيئاً فشيئاً خلفَها وهي تعدو بالخيل دون توقّف ؛ تتذكر البرد الذي كاد أن يُتلف أطرافها خلال ثلاثة أيامٍ من السير وحيدة ؛ تتذكرُ وعدَها

بأن تنتقمَ لنفسها ودانييل . . وتتخيل منظر جاك وحيداً ذليلاً بين الحاضرين اللذين علموا بفرارها مما يشوّه سمعتهُ كتاجرٍ وزوجٍ ورجل مجتمع ؛ تتذكرُ حرمانها من حبيبها دانييل ؛ وحرمان جاك من ابنه . . «انتقمتُ يا داني ؛ لقد نفذتُ وعدي . . حرمني منكَ وحرمتهُ من كلّ شيء ؛ سأسمّيه باسمك ؛ سأحرقُ قلب والدهِ حاضراً كان أم غائباً» . .!

تضعُ ريتا ابنها دانييل على السرير ؛ وتلتفت إلى المشرفة التي جلبت غطاءً إضافياً لابنها . . وعادت مرةً أخرى بحساءٍ ساخنٍ يعيد بعضاً من لون وجهها الشاحب . .

قصّت ريتا حكايتها على المشرفة بعد بضعة أيام من المكوث في الميتم ؛ أخبرتها بكلّ شيءٍ حدثَ معها ؛ وكيف أنها هربَت كي تلحق العار بزوجها جاك ؛ وتختفي من حياته للأبد . . .

- هكذا إذاً . .

- نعم . . لقد عانيتُ كثيراً حتى وصلتُ إلى هنا ؛ لم أعُد أملكُ خياراً ؛ أرجو أن تساعديني ؛ وسأعمل جاهدةً على مساعدتكِ في كلّ أمور الميتم وتخفيف العبء بما أملكُ من مالٍ يكفي لجلب مؤونةٍ حتى نهاية الربيع . .

- لا تقلقي . . اعتبري أنّ امرأةً لها أوصافكِ لم ترَها عيناي أبداً . . .

- شكراً . . لن أنسى جميلكِ أبداً

- لم يبقَ لي في الميتم سوى شهور قليلة ؛ لقد طلبتُ من مجلس المقاطعةِ إعفائي من العمل ؛ لا بدّ أن أرتاح فيما تبقى لي من العمر ؛ لقد كبرت . . .

- وماذا سأفعل أنا بعد ذلك . .؟

- إذا أثبتِّ جدارتكِ خلال هذه المدّة . . سأوصي مجلس المقاطعةِ بتعيينكِ بدلاً عني .

- حقاً . .؟

- بالطبع ؛ لكن عِديني أن تقومي بالعمل كما كنتُ أقومُ أنا به . .

- بكلّ تأكيد . . .

غارقٌ في الحزن..

- جاك . . جاك ؛ هل سمعتَ بما حصل . .؟

- هل وجدوا تلك الفاسقة يا غابرييل . .!

- لا يا جاك . . انسَ أمرَها أرجوك ؛ لقد غرقت سفينتي على مسافةٍ شهرٍ في البحر يا جاك ؛ إنها خسارة فادحة ؛ إنها الثانية على التوالي . . يا لسوء حظي!

يضعُ جاك كأس الشراب على الطاولة ؛ تترنّحُ يداهُ في الهواء :

- يا لسعادتي . . لقد سمعتُ خبراً جميلاً لأول مرةٍ منذ سبعة أشهر ؛ لقد ماتَ ذلك الصعلوك عشيق الفاسقةِ البغيضة أخيراً . . .

- أووه . . أنتَ في عالمٍ آخر يا جاك ؛ سُحقاً لك ؛ كأنّ لعنةً ما أصابتني معكَ حين ساعدتك في إبعاد الصعلوك عن حبيبته ؛ خسرتُ أنا أموالي وخسرتَ أنتَ سمعتكَ وابنك ؛ تباً لك!

يخرجُ غابرييل غاضباً ؛ في حين رفعَ جاك كأس الشراب عالياً كي يشربَ نخب غابرييل الغاضب ؛ ويُفرغ الكأسَ كاملاً في فمه دفعةً واحدة .

زيس..

ثريٌ يشتري منزلَ الثريّةِ الخرساء . . شرَعَ مجلسُ المقاطعةِ في بيع أملاك الثرية بعد أن حجروا على ثروتها ؛ والتصرف بالمبالغ للصالح العام ؛ كان المجلسُ الجديد يفعلُ كلّ ما يحلو له في أموال العائلة المحتجزة ؛ بِيعَ القصرُ في مزادٍ علنيّ بعد خمس سنواتٍ ونصف من إصابة الثرية بالشلل . . شاعَ الخبرُ سريعاً في أرجاء المدينة ؛ إذ أنّ القصر الذي باتَ يُعرف بـ (منزل الخرساء) جزءٌ لا يتجزأ من الأخبار والشائعات اليومية لأهل المقاطعة .

ثريٌ اسمهُ (زيس) . . قادمٌ من اللا مكان ؛ كان مغترباً لسنين طويلة خارج البلدة ؛ وبعد أن عاد قرّر المكوث في المقاطعة التي تتميّز بطبيعتها الخلابة ؛ اشترى القصرَ وساهم في إعادة ترميم المدرسةِ التي أشرفَ بنفسهِ على إدارتها ؛ كان سخياً بما تعنيه الكلمةُ مع أطفال الميتم اللذين لم يتبقَّ منهم سوى ثلاثة .

كذلك كان السيد تشارلز كريماً أيضاً . . لحيتهُ البيضاء وقميصه الأبيض يبعثان على الحبّ ؛ كان يتردد كثيراً على الميتم ويُحضر الحلوى للأطفال اللذين ظلوا يتناقصون شيئاً فشيئاً ؛ كان تشارلز يساعد كثيراً في جلب مَن يتبنّون يتيماً . . رغبةً منهم في تكوين عائلةٍ لم يشأ لها القدرُ أن تتكوّن بطريقةٍ طبيعية ؛ وذلك بعد رحيل المشرفة السابقة ؛ كان دائماً ما يأخذ أطفال الميتم في نزهةٍ يشتري لهم فيها قطع الحلوى اللذيذة ؛ كانوا يمرّون بمنزل الخرساءِ ويقرؤون بصوتٍ مرتفع (المرأة نصفها أخرس) ؛ ربما لم تكُن قراءةً بالقدر الذي كانت فيها ترديداً لما قرأَ لهم الرجل الأبيض (تشارلز) من قبل ؛ عندما توقفوا ذات يومٍ وسألوه عن اللوحة ؛ كانوا في الميتم يتعلّمون الحروف قدر المستطاع ؛ وكانت المشرفة تحرص على حِفظهم لها ؛ لكنها وبعد أن التقَت بأحدهم لم تعُد تهتمّ بما يحدث ؛ كان شاباً وسيماً وعطوفاً ؛ لكن كانا على شجارٍ غير مبررٍ بين الحين والآخر ؛ بعد ثلاث سنواتٍ قضتها في الميتم . . جاء (شارل) برفقةِ السيد تشارلز في إحدى رحلاته التجارية ؛ سرعان ما تفحّصتهُ المشرفة وأمعَنت نظرها فيه ؛ سألتهُ عن أشياء كثيرةٍ تخصّ البحرَ والعاصمة وما لا يُحصى من الاهتمامات المشتركة بينهما ؛ كان يجيبها بابتسامةٍ دائماً ؛ حتى حين دلَقَت كوبَ القهوةِ

الساخن خطأً عليه . . أصرّ على أن يعتذر هوَ نيابةً عن ما حدث ؛ سرعان ما صارت الزيارةُ اثنتين ؛ والاثنتان خمساً . . وهكذا ؛ توالت الزيارات حتى أصبحا قريبَين من بعضهما ؛ خاصةً وأنّ المشرفة تحتاجُ إلى رفقةٍ كلّما جاءت إلى الميتم أو غادَرَتْه كما كانت تقول ؛ لقد كانت بطريقةٍ ما تَنسى . . النسيانُ الذي يأخذ شكل الإزاحة ؛ أن تضعَ شيئاً بدلاً عن شيء ؛ أن لا تبقى فارغاً ؛ النسيانُ الذي ترتكبهُ أنتَ بملء قلبكَ كي لا يرتكبهُ قلبُكَ بملءِ عجزك ؛ كأنها تودّعُ آخَراً لم يعُد آخَرَها . . فتضعُ آخراً يُصبحُ آخَراً غريباً بعد أيام أو سنين ؛ المرأةُ مُعقّدةٌ كإنسانٍ وبسيطةٌ كروح . . كإنسانٍ تَدخلُ في متاهةِ انتقاءاتها العشوائية كي تعقد هدنةً مع روحها ؛ لكنّ روحَها ترضخُ لأيّ هدنةٍ كي تستطيع التفكير بعيداً عن هذا القلق المؤذي ؛ والنسيانُ أحدُ الحلول المؤقتة . . والعلاقة السريعة حلٌ يُجبر الجسدَ على الهدوء ويُجبر الروحَ على الاسترخاء ؛ المشرفةُ -كامرأة- تحتاجُ إلى رفقة ؛ وكعاشقةٍ تحتاجُ إلى تسلية . . العاشقةُ تحتاجُ صديقاً إذا فقدت عاشقاً ؛ وفي أحايين كثيرةٍ يُصبحُ الصديقُ عاشقاً يُعيدُ توازن امرأةٍ تتأرجحُ في حبها كما يتأرجحُ البهلوانُ على حبل السيرك .

التسلية التي تحتاجها العاشقة ليست تسلية خيانة . . بل مَلءُ فراغٍ يُصبحُ سريعاً فراغاً أكبر ؛ إنّ الصديق الذي تتكئ عليهِ أيّ امرأةٍ تعيشُ فَقْدَها . . لا يُعينها بالقَدر الذي يُذكّرها فيه برجلٍ لم تستطع نسيانه ؛ وكلّما احتاجت إليهِ لجأَتْ إلى صديقها . . حتى يختلط الأمرُ عليها بين حاجتها إلى صديقٍ لتَنتصر على فراغها ؛ أو إلى رجلٍ لتملأ بهِ هذا الفراغ . .!

شارل..

كان شارلُ لبقاً في التعامل مع النساءِ وأنيقاً . . لكنهُ معَ المشرفةِ استثنائياً كما تريدُ أيّ امرأةٍ من رجلها ؛ حالماً بما تعنيه الكلمة وحليماً ؛ لكن لكلّ رجلٍ ما يُعيبهُ ولو كانَ مَلِكاً منذ نعومةِ أظافره ؛ انتقلَا إلى مرحلةٍ أبعد عن كونها زياراتٍ في الميتم . . كأنْ يقضيا الليل سوياً حتى الفجر خارجَه ؛ وتطوّر الأمرُ إلى قضاءِ أيام وربما أسبوعاً بعيداً عنه ؛ كان ما يدخلُ إلى خزينة الميتم بعد تبنّي الأطفال -بطريقةٍ غير شرعيةٍ- يخرجُ منهُ بطريقةٍ غير شرعيةٍ أخرى ؛ كأنْ يقضي عليه شارل بشربه الدائم للخمر . . وكانت المشرفة تؤمّن لهُ ما شاءَ منهُ طالما هو بجانبها ؛ كأنّما تشتري بقاءَهُ بالمال بعد أن رحلَ أحدهم من أجله ؛ ومن أجل المال يفقدُ المرءُ قلبَه ؛ ومن أجل المال يفقدُ خوفَهُ من كلّ شيء ؛ ومن يفقدْ خوفَه يفقدْ إنسانيته ؛ ومن يفقدْ إنسانيّته لا يستعيدها ولو شعرَ بخوف أهل الأرض بعد تلك اللحظة . .!

في هذه الأثناء . . قَـدِمَت امـرأةٌ ثرية جـداً إلى الميـتم ؛ اجتـمَعت بالمشـرفـةِ لدقـائق قليلة ثمّ غـادَرَت ؛ كـانـت ترتدي حريراً أخضر . . كما يرتدي وادٍ ربيعاً كاملَ البـهاء ؛ ثمّ عـادت بعـد سـاعـاتٍ وهي تُمـسكُ طفـلاً ؛ قـالت ببسـاطةٍ «هذا هو» ووضعَتْ صرّةَ مالٍ في يدِ المشرفة ؛ وضمّت الصبيَّ وانطلقَتْ ؛ كانَ صبياً وديعاً جداً ؛ كثيف الشّعرِ أحمر الوجنتين ؛ وببساطةٍ أمسكَت المشرفةُ يدَهُ وأخذتْهُ حتى الموقد ؛ ثمّ علّمَتْهُ موضعَهُ من المكان وغـادَرَت ؛ سرعان ما يصبح الصبيّ صديقاً لطيفاً ؛ سرعان ما توبّخه المشرفة أو تعنّفه ؛ سرعان ما تعاقبها على ذلك المرأةُ التي أحضرَتْه والتي اتّضحَ فيـما بعد أنـها أمه ؛ أمّه التي فضّلت أن يحيا ابنُها يتيماً أمام ناظرَيها على أن يعيشَ بعيداً مع أبيهِ الذي يصرّ دائماً على تعليمـهِ مبكّراً أسرارَ البحر كي يرثَ مَجدَهُ وتجارتَه ولا يندثر اسمـه ؛ لكنهـا فـيمـا بعـدُ تعودُ لتأخذه بعـد أن رأت سوء معاملة المشرفة لهُ وعدم اطمئنانها عليه بعد ذلك .

كان شارل في غير يومهِ عندما حضرَ ذلك اليوم . . بعد أن تَكوَّر بطنُ المشرفةِ بطريقةٍ تُفزعُ الصغير دانييل ؛ أصبحَت حادة المزاج أكثر مـن ذي قبل ؛ لا تنطقُ إلا نَهياً ؛ ولا تُقيل عثرةً مـهمـا كـانت صغيرة ؛ واحتـدّ بينهـمـا خصامٌ قرّرَ على إثرِه أن يقبل استـدعـاءَ

الجيش التطوّعي . سرعانَ ما تحوّل غضبُ المشرفةِ إلى رجاء :

- شـارل . . شـارل ؛ لا تتـركني بعـد أن وهبـتُك نفـسي ؛ أرجوكَ لا تعاقبني بالطريقة ذاتها . .!
- لقـد سـئـمتُ منكِ يا ريتـا . . من شـجـاراتكِ التي لا تنتهي ؛ ماذا تريدين مني . .؟
- أنتَ ماذا تريد . .؟ لقد أنفقتُ ما أملكُ من أجل بقائك معي ؛ حتى هباءً أنفقتُ مالي على ما تشربُ من خمرٍ وما تلبسُ من ثياب .
- هباءً . .؟ لقد عاملتكِ جيداً ؛ حتى بعدَ أن تخلّى عنكِ فقيرٌ تافهٌ وتخلّيتِ عن غنيٍ بغيض . .!
- إياكَ أيها الحقير . . إياكَ أنً تذكر داني بسوء ؛ لقد كان أفضل منك بكثير ؛ على الأقلّ ماتَ أو لم يُمت من أجلي ؛ وأنتَ لم تفعل شيئاً إلا من أجل نفسك أيها الأنانيّ ؛ إنهُ رجلٌ أيها الرُمِّيُّ البغيض ؛ يا آكِلَ طعام اليتامى وَ . . . .

يقاطعها شارل بقهقهةٍ عاليةٍ وبوضاعةٍ غير معتادة :

- طعام اليتامى . .! أينَ هم الآن . .؟

يفتحُ شارل أبواب الغرف المتراصّة في الميتم واحداً تلو الآخر وهو يصرخ :

- أين هم اليتامى . .؟ يبدو أنني أكلْتُهم بعد أن فرَغ طعامُهم أيتها المسكينة . . .

ثمّ يُمسكُ بكتْفَي دانيل -بعد أن وقفَ أمامه على رُكبتَيه- ويقول :

- هل تُدركني عيناكَ البريئتان . .؟ هل يسمعني قلبُك . .؟ هل تشعرُ بما أشعرُ به . .؟ أكادُ أجزمُ أنني أشعرُ بما شعرْتَ بهِ من مقتٍ وبُغضٍ لهذه المرأةِ عندما كنتَ داخلها . .!

يُغلقُ شارل سحّاب حقيبتهِ الداكنةِ ثمّ يرميها خلفَ كتفهِ وهو ينظرُ إلى المشرفةِ ثمّ يحوّل نظرهُ إلى داني :

- إذا واتتك فرصةُ قَتْلِها لا تتردّدْ يا بنيّ ؛ لا تتردّدْ أبداً ؛ أنا أشفقُ عليكَ كثيراً من الحياةِ معها . . .

غادرَ شارل . . بعد أن ترك البابَ وراءَهُ مفتوحاً للشتاءِ والندمِ والفراغ الجديد ؛ الفراغ القاتل . .!

الهرب..

اركُض يا دانيــيل . . اركُض ولا تتــوقف ؛ اركُض حــتى يختفي أحدكما عن الآخر . . أنتَ عن الخريطةِ ؛ أم الميتمُ عن ناظريك ؛ أطلق ســاقــيكَ للريحِ . . وللريحِ ؛ وللريح . . اركُض كـالغـزال من فكّ وحشٍ ضارٍ ؛ كـالفـراشـةِ عن عـصـا الصـيّاد الشبكيّة ؛ كالماءِ المتفلّتِ من قمةِ جبل ؛ اركض يا دانييل . .!

استنَدْتُ على سورِ الحديقةِ بعدَ أن ركضتُ طويلاً هارباً من الميتم . . استغليتُ فرصةَ غيابِ المشرفة ؛ كانت غائبةً منذ أسبوعٍ ؛ وفي غيابها عطفَت عليّ امرأةٌ شابة كانت تغسلني بماءٍ دافئٍ ولا تهددني بحبسي مثلما حُبسَ الرجلُ ؛ ذاتَ مساءٍ ودّعَتني . . وقالت أنها ستشتاقُ إليّ ؛ وأخبرتْني أنّ المشرفةَ ستعود ؛ كانَ خبراً سيئاً بالنسبةِ لي ؛ كيفَ أشرحُ لهذه المرأة الحنونةِ أنّ طفلاً مثلي يفقدُ أماً لا يفصلُ بينها وبينهُ سوى حائطٍ واحد ؛ وربما طاولة طعام صغيرة ؛ وربما دلو ماءٍ تسكبهُ على جسده الصغير لتغسلهُ بعدَ أن تغسل روحَهُ بتوبيخها . .؟

ودّعتني المرأةُ بلطفٍ وغادرَت . . ذلك بعد أن وعدتني بأنّ المشرفة ستحضر إذا بقيتُ هادئاً نصف ساعة ؛ ولا أعلمُ لمَ راقبتُها وهي تغادر ؛ ولا أعلمُ لمَ حملتُ صندوق الموسيقى دون غيرهِ من الأشياءِ التي أستطيع حملها ؛ والتي من الممكن أن تقيني من البرد ؛ ربما لأنّ الحفاظ على صديقٍ لا يقلّ أهميةً عن الحفاظ على حياتك . .؟ الأصدقاء . . اللذين يتركون جزءً منهم -ملموساً- بين يديك ؛ اللذين يقولون بطريقتهم «نحنُ معكَ مهما تطلّب الأمر واستَشْرَت الحياة» ؛ اللذين يضَعونَ بعفويةٍ أرواحهم في صدرك ولا يطلبونَ منكَ شيئاً ؛ لا يطلبون منك أن تحميهم ؛ من نسيانك -على الأقلّ- أو من تَغَيُّرِ قلبك ؛ لا يطلبونَ شيئاً أبداً سوى ابتسامتك ؛ ثمّ في كلّ فرصةٍ يُثبتون وجودهم مهما غابوا ؛ يضعونَ شيئاً منهم في رسالةٍ ويبعثونها ؛ أو في معزوفةٍ دافئةٍ فتسمعُها ؛ أو في حلوى . . يبقى على طرف لسانك سُكَّرُها ولو ذابت منذ عشرين سنة ؛ الأصدقاءُ شقائق الروح . . هم الأشياء العظيمة التي تحدُث فجأةً بطريقةٍ ليست منزّهةً لكنها فائقة القدسيّة ؛ اللذين تراهم ولو فقدْتَ ماءَ عينيك ؛ وتسمعهم وإن لم تنقُلْ صوتَهم ريحٌ ؛ وتشعرُ بهم ولو حالَ بينكم ما يحولُ بين الرجل ذي البأس الشديد وأمانيه . .!

ركضتُ على غيرِ هُدى . . مغمضَ العينين ؛ لا أدري من الهواءِ الباردِ أقي عينيّ أم من المجهول الذي يواجههُ الأطفالُ بإغلاق أعينهم ؛ كأنهم إذا لم يرَوا شيئاً لن يراهم شيء ؛ أفكرُ في كلّ الأيام التي قضيتُها في هذا المكان البارد كمقبرة . .!

أنا دانيـيل . . الطفلُ الذي صافحَ العالمَ بقلبهِ لأنّ يدَهُ صغيرة ؛ هذه اليدُ الصغيرة التي لم تُجبر أماً أنْ تُشفق عليها فتصافحها ؛ الصغيرةُ التي لم تُقنع شتاءً على الرفق بها ؛ الصغيرة جداً أمام فكّ طفل المشرفةِ حين عضّها بلؤمٍ فعاقبَتْني على إثارة غضبِ طفلها ولم تعاقب طفلَها على أيّ شيءٍ . .!

كنتُ قد قطعتُ مسافةً بعيدةً عن الميتم/ قَدَري ؛ لكنّ الصدفة ألقتْني في طريق امرأةٍ جعلَها اللهُ قدَري أينما ذهبت ؛ فوبّخَتْني لمساءاتٍ لا أحصي عددها ؛ ثمّ أخبرت السيد تشارلز بنيّتها في جلب متبنّين لي وصديقي .

كان الرجلُ الأبيضُ سعيداً بهذا الخبر . . إذ أنّ حلمهُ في الحصول على طفلٍ باتَ ممكناً في ظلّ بحث المشرفة عن المال الكافي للإبقاء على استمرار الميتم ؛ وافقَت ريتا على منح تشارلز حقّ الوصايةِ على صديقي ؛ لكنهُ لما رأى تعلّقي بصديقي هذا عَرَضَ عليها أنْ يتبناني أيضاً . . ذُهلت المشرفة بعرضهِ في تبنّي طفلين بوقتٍ واحد ؛ لكنها فكرَت في التريّث

قليـلاً كي لا يشكّ أحدٌ في الأمـر . . إذ أنّ القـوانين تمنع تبنّي الأطفـال دون وجـودِ زوجـة ؛ وكـذلك طمَـعاً في أن يزيد تشـارلز في عـرضـه ؛ وافـقت على إرسـال صـديقي برفـقتـه . . على أن تتفق معهُ لاحقاً بشأني . . .

خرجَ تشارلز من الميتم بعد أن مسح على رأسي بيده قائلاً «قريباً أيها الشقيّ سنلتقي» . . ثمّ التفتُّ على صوتِ المشرفة التي قالت بهدوءٍ بعد أن غادر :

- أنت أيهـا البـغيض . . يومـاً مـا سـتكونُ حُراً ؛ لكنّ ذلكَ اليوم بعيد ؛ ليسَ وأنا هنا . .!

خرجتُ مسرعاً أبحث عن صـديقي ؛ رأيتُ رأسهُ الصـغير من نافذةِ العربةِ يُطلّ بسعادة ؛ انتبهَ لي وقالَ بصوتٍ عالٍ :

- مع السـلامـة يا داني ؛ سنذهب في رحلةٍ بهـذه العـربة الجميلة . .

ثمّ ابتعدت العربةُ شيئاً فشيئاً ؛ وأنا لم أكُن أعرف أنها المرة الأخيرة التي سأرى فيها وجهَ صديقي الطيب ولمدّةٍ طويلةٍ جداً .

جاءَ صوتُ المشرفةِ كتنبيهٍ من الخلف :

- دانييل . . سأحتفل هذه الليلة .

وكانت كلمةً تبعثُ على القلق حقاً . .!

أتحبّني يا داني..

كانت للمشرفةِ طرُقُها في تأمين احتياجات الميتم ؛ ريتا . . الفتاة التي عاشت حياة الفقراء العاملين في تدبير شؤون منازل الأثرياء ؛ والتي انتقلَت فيما بعدُ إلى منزل تاجرٍ ثري جداً كزوجةٍ لأقلّ من سنتة ونصف ؛ قد تعلّمت الكثير . . وكان السيد تشارلز يُساعدها في كثيرٍ من أمورها المالية ؛ حتى أنها حين تغيب عن الميتم لأسبوع أو اثنين . . يتكفل بإحضار امرأةٍ بديلةٍ بشتى الطرق ؛ وكانت لا ترفض طلباً للسيد تشارلز – منقذها الدائم–على حدّ تعبيرها .

لم أفهم سبب كرهِ السيدة ريتا لي ؛ خاصةً وأنها غيرَ مرةٍ تبكي في الليل وهي تطلبُ مني أن أسامحها ظناً منها أنني لا أسمع ؛ كنتُ في نظرها دائماً (الشقيّ دانيل) يتيمُ أبوَين كلاهما رجُل ؛ لم أفهم كيفَ لطفلٍ أن يكون لهُ أبان رجلان . .! لكنها كانت دائماً ما تشتمُ اسمي أو ملامحي ؛ كلٌّ (تبّاً) تقولُها المشرفةُ تعني رجلاً مختلفاً ؛ وكنتُ بالرغم من ذلك

محبوباً من أهل الحيّ ؛ أصحاب المحلات المجاورة للميتم ؛ وكذلك من زيس . . كنتُ سعيداً بطريقتي الخاصة ؛ على الأقلّ كنتُ طفلاً ليست لهُ طريقةٌ في الحياة سوى اللعب ؛ وكنتُ أجدُ في كلّ حَجَرٍ وسيلةَ ترفيه ؛ وفي كلّ مأزقٍ لهواً أقطع به الوقت ؛ كانت المشرفةُ حنونةً في أحايين قليلة ؛ وقاسيةً في ما تبقّى من الوقت ؛ أخطأتُ مرةً حين سألتُها ببراءةٍ (أينَ أبي) . .؟ فجعلتني أفكرُ في الإجابة أسبوعاً كاملاً داخل غرفةٍ أعلى البرج ؛ وكانت تسمحُ للصّبيةِ في مناداتها بـ (أمي) إلا أنا . . إما أناديها سيدتي أو سيدتي المشرفة ؛ لكنّ السنين مرّت بخيرها وشرّها على قلبي وجسدي وذكرياتي . . بعثَ الرجلُ الأبيضُ يطلبني من المشرفةِ بعد سنةٍ من مغادرة صديقي ؛ قالت ؛ وهي تسلّم الرجلَ أوراقاً قد رأيتُها من قبل ؛ وهو يسلّمها صرّة نقودٍ ثقيلة :

- تعرف أنني أحبك يا داني . .؟

هبَطَتْ على ركبتيها أمام جسدي الضئيل ؛ أمسكَت كتفيّ وأعادت سؤالها :

- تعرفُ أنني أحبكَ يا داني . .؟

كنتُ أريدُ أن أسألها عن ماذا حلّ بالمرأةِ التي احتضنَتني حين ابتلعتُ شوكةً ذات يوم . .؟ هل هيَ أنتِ . .؟ هل يُمكن

لامرأةٍ أن تحملَ ذلك الدفء في حضنها أن تقسو مثل قسوتها . .؟

- داني . . حبيبي ؛ أنا لا أصلح كأمٍ كي تحيا معي ؛ هل تفهمني . .؟

كانت تبكي بطريقةٍ أجبرت السائق على الانتظار خارجاً ؛ وكانت تقولُ كلاماً كثيراً عن الحبّ وعن اسمي ؛ وتضمّني بشكلٍ أخافني رغمَ حاجتي إلى أمرٍ كهذا ؛ كنتُ لا أتجاوز السابعة من عمري ؛ لكني كنتُ أحفظ الكثير مما كانت تقولهُ المشرفة وهي تغسلُ جسدي . . «كلّ الرجال كاذبون» أو «الماءُ الذي تسكبهُ عليك ؛ تشربهُ أقدامك . . لكنكَ كشجرةٍ متعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر» وتقولُ ذلك بعد أن تردّد وعوداً كثيرةً قالها أحدُهم لكنهُ على ما يبدو نكصَ بوعده . . . قلتُ ببراءةٍ كي أسعدها :

- سيدتي المشرفة . . سأتركُ قلبي هنا ؛ في هذه المدينة الدافئةِ بين يديكِ ؛ سأستردّه يوماً ما عندما أعود . . . كوني بخير من أجلي .

اتسَعَت عينا المشرفة بدهشةٍ بعد أن انتهيتُ من كلامي ؛ أتذكر السائق الذي عاد ليُمسك بيدي ويأخذني إلى العربة ؛ كنت أسيرُ معهُ وأنظرُ إلى الخلف تاركاً ورائي امرأةً في صمتٍ تام .

حياةٌ جديدة..

«الفرحُ رجلٌ أبيض» . . كانت مفاجأةً رائعةً حين علمتُ أنّ تشارلز هوَ من سأعيش معه ؛ وكانت مفاجأةً أروع تلك التي أعقبَت صرختي العالية عندما أطلّ رأسُ صديقي من النافذة . .

كنتُ سعيداً في الميتم الجديد ؛ أبوابهُ البيضاء كثلوج الجبال ؛ ثريّاته الكبيرة كقطع الشمس في مدنٍ ذهبية ؛ نوافذه المُشرعة على وادٍ أخضر ؛ خضراء هذه المدينة ؛ الهواءُ أخضر ؛ يدي خضراء ؛ ذكرياتي ؛ الوقتُ ؛ خطواتُ القطةِ على السور ؛ صوتُ الدوريّ ؛ عينا صديقي الذي يضحك دائماً على كلّ شيء ؛ أيّ شيء ؛ ولو صوت بابٍ في ليلةٍ ظلماء . .!

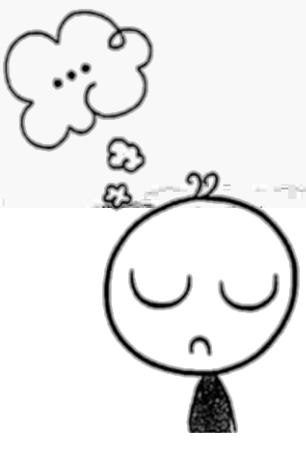

غرفةٌ دافئة وصديقٌ قديم..

الحياةُ أكثرُ من عجيبة . . يضيقُ عقلكَ أمام اتساع دهشتها ؛ كلّما أدركتَ منها سراً أيقنتَ جهلكَ بملايين الأسرار . هل يمكن للقدر أن يظلم . .؟ أقصد هل يُمكن للقدر أن يمرّر الحياةَ بطريقةٍ تراها أنتَ ظالمةً لأنهُ لم يجب عليها أن تسير كذلك . .؟ ما اسمُ اللذينَ أبعدَهُم أهليهم عنهم . .؟

كنتُ أرسمُ على الرمل وجهاً كبيراً يضحك . . وكلّما رسمتُ ضحكةً رسمْتُ أنياباً ؛ كطفلٍ أنا . . أصفُ الحياةَ بعمقها العفويّ دون أن أعرف دلالات الرمز واستعارات الصورة والكلام ؛ ربما لأنّ حياةً طويلةً مليئةً بالسعادة ؛ والخيبةِ السريعة التي تعقبها ؛ قد مرّت عليّ . .!

هل تفهمُ الحياةَ كما تفهمُك الحياة . .؟ هل تعاملها كما تعاملك . .؟ هل تواجهها كما تواجهك . .؟ إنكَ أبعد بكثيرٍ

من أن تنتصر عليها ؛ وأقرب من أن تعرف ما تخبئه لك ؛ كلّما مرّ يومٌ تفاجأتَ بباب أوسع إلى المعرفة ؛ يُفضي إلى عالمٍ أضيقَ من نظرةِ الجاهل إلى الوقت ؛ الوقتُ الذي يكشط الحقيقةَ كورقةِ يانصيب ؛ حظكَ منهُ . . حظُّ المسافر من طريقٍ لا يتذكرُ عابريه ولا ينساهُ عابروه ؛ كهذا الميتم الذي استولى على ذكريات الأطفال رغم أنهُ أخرجَهم من بابهِ كما يُخرجُ النسيانُ قلباً من قلبِ شخصٍ آخر . .!

في غرفةٍ دافئةٍ في الميتم الجديد ؛ نفختُ في شمعةٍ مُضاءةٍ مثبّتةً في طبقٍ على الحائط بعد أن اعتليتُ كرسياً خشبياً كي أطفئها ؛ ابتسمتُ كما أفعلُ عادةً حين أُطفئ شمساً بنفخةٍ واحدة ؛ عدتُ إلى سريري وشدَدْتُ الغطاء حتى ذقني ؛ ثمّ في الظلام . . التفتُّ إلى صديقي وسألتهُ ببراءة :

- هل سنكون سعداء مع رجلٍ فضّلَ أن يدفعَ مالاً مقابل الحصول علينا ؛ بدلاً من إغلاق الميتم الذي يبيع الأطفال . .؟

انتهى . .

حتى الرجل . .

الذي رأيتم الماءَ يتدفق من تحت قدميه ؛

إنهُ أبي . .!

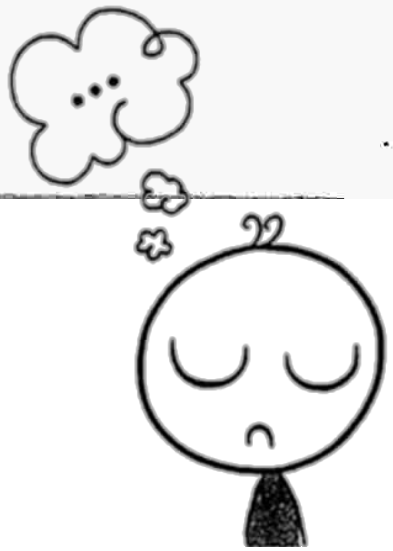

سيكبر أنفها

ماجد مقبل

التسلية التي تحتاجها العاشقة -إذا فقدَت عاشقاً-
ليست تسلية خيانة.. بل مَلءُ فراغٍ يُصبحُ سريعاً
فراغاً أكبر؛ إنّ الصديق الذي تتكئُ عليهِ أيّ امرأةٍ
تعيشُ فَقْدَها.. لا يُعينها؛ بالقَدر الذي يُذكّرها فيه
برجلٍ لم تستطع نسيانه؛ وكلّما احتاجت إليهِ لجأتْ
إلى صديقها..حتى يختلط الأمرُ عليها بين حاجتها
إلى صديقٍ لتَنتصر على فراغها؛ أو إلى رجلٍ لتملأ
بهِ هذا الفراغ..!

KALEMAT